حكاية صابر

الكتاب: حكاية صابر

الكاتب: الأسير محمود عيسى

الطبعة الأولى: ١٤٣٤هـ - ٢٠١٢م

كل الحقوق محفوظة

الناشر: مؤسسة فلسطين للثقافة

سورية - دمشق - ص. ب: ١٣٠٢٩
هاتف: ٠٠٩٦٣١١٦٣٧٤٨٠٢
فاكس: ٠٠٩٦٣١١٦٣٧٤٥٥١

البريد الإلكتروني: thaqafa@thaqafa.org
موقع المؤسسة على الإنترنت:
www.thaqafa.org

تصميم الغلاف والإخراج: م. **جمال الأبطح**

حكاية صابر

رواية

الأسير المقدسي

محمود عيسى

الإهداء

إلى أرواح شهداء قادة «الحماس» العظماء، الذين سطروا بدمائهم الزكيّة معنى العزّة والإباء، معنى الثبات على الحق في زمن الرويبضاء، معنى حب الوطن وأصالة الانتماء، معنى أن نعيش أحراراً، ونموت شرفاء، معنى أن يرعب الشيخ القعيد دولة الدخلاء، فتقتله «غيلة»..

سجل أيها التاريخ في الخالدين
قادة صنو الصحابة أوفياء

محمود عيسى

مقدمة

الحمد لله وليّ الصابرين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

حكاية صابر، حكاية شخص تُجسّد حالة شعب، وحكاية شعب تتجسد في شخص، فيها مزج بين الواقع والخيال، خيال من أصل الواقع، وواقع أقرب إلى الخيال، يمثل فصولا من تاريخ شعب لا يقهر، شعب تكالب عليه الأعداء من كل حدب وصوب، وتخلى عنه القريب والبعيد، ثم عاد البعيد ليشارك في القهر، وعاود القريب الغدر والطعن في الظهر.

تبدأ الحكاية مع «النكسة»، يوم ولد صابر، يتيما بائساً فقيراً، استمد بؤسه وقهره من بؤس الوطن الذي عاث الغاصب فيه فساداً، فنهب خيراته، وسلب ثرواته، وراح يغيّر معالم حضارته، تاريخه، ثقافته، لغته وأصالته.

وكان صابر كلما امتد به العمر، ازداد بؤساً، وازداد جرح الوطن النازف عمقاً، حتى إذا بلغ رشده وبلغ عشرين سنة، وبلغ القهر ذروته، انتفض الشعب، وأعلن ثورته، ومضى بعزيمة وإصرار يبذل دماءه وجراحه في طريقه لاسترداد حريته، واستعادة كرامته، إلا أن بعضاً ممن ثقلت همتهم وضعفت عزيمتهم اثّاقلوا إلى الأرض، وأرادوه عرضاً قريباً، وسفراً قاصداً، فساروا في طريق غير ذات الشوكة، وقادوا البلاد والعباد إلى التيه في صحراء

الوهم، خلف سراب السلام «سبعاً عجافاً».

ثم ما لبث أن انقشع الضباب، وتبدد السحاب، وبدت الحقيقة لكل ذي بصيرة واضحة جلية، أن ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوّة، وبقي من بهم داء «الاستمراء» في غيّهم يعمهون، ما انفكوا يلهثون خلف الوهم والسراب، كلما تبدى لهم ركضوا خلفه، كأني بهم يريدون أن يغالبوا قدر الله، ويغيّروا ما قضاه، غير أن نهاية الحكاية لا يمكن، بل ينبغي أن لا تُخط بغير ما خُط به أولها. وكلما حاول هؤلاء رسم نهاية أخرى خاب أملهم، وضلّ سعيهم، ونقض كيدهم من بعد قوة أنكاثا، وسيبقى هذا حالهم حتى يحكم الله أمره، ويحق وعده، وينصر جنده.

من هنا فإنني تركت هذه الرواية دون خاتمة، لأن أحداثها ما زالت تدور وستبقى دائرة إلى أن يأتي اليوم الموعود، يوم يفرح المؤمنون بنصر الله، ينصر من يشاء وهو العزيز الحكيم.

(١)

طفولة راشدة

هذا التنبل من ذاك الأسد

مالت الشمس للمغيب، وعيون أطفال المخيم الذين يلعبون في الشوارع والأزقة ترقب بلهفة عودة آبائهم الكادحين حتى يتسابقوا لاستقبالهم، علهم يحظون منهم بشيء يفرح قلوبهم، ويبقى صابر وحيداً، يراقب الموقف عن كثب، ثم ما يلبث أن يعود أدراجه مطأطئ الرأس كاسفاً، وفي غفلة من الناس، كانت قوات الاحتلال تحكم حصارها على المخيم، تجوب شوارعه بدورياتها، وتعلن فرض حظر التجول، وعلى الرجال ما بين السادسة عشرة والخمسين التجمع في ساحة المدرسة، وتحذر المخالفين وتتوعدهم «بالويل والثبور وعظائم الأمور».

اضطرب الناس وماجوا، وسارع أصحاب المحلات والحوانيت إلى إغلاق محلاتهم وحوانيتهم، وفزعت النسوة يتلقّطن أولادهن من الشوارع والأزقة، وسار الرجال إلى ساحة الحشر متثاقلين كأنهم يُجرون إليها جرا، وهم يتهامسون فيما بينهم ويتساءلون، وانتشرت الشائعات وتعددت الروايات وتلقفتها الآذان وتناقلتها الألسن، تنقص تارة، وتزيد تارة أخرى، وقد غافل

صابر أمه والتحق بالمحتشدين في الساحة.

غربت الشمس، وبدأ الليل يرخي سدوله وما زال رجال المخيم واقفين على أقدامهم صفوفاً حول سور الساحة، مولّين وجوههم إلى جهة محددة كما أمرهم جنود الاحتلال، ينتظرون بفارغ الصبر، أن ترأف قلوب جنود الاحتلال بهم، وأن يسمحوا لهم بالجلوس على الأقل، وإراحة أجسادهم بعد أن أضناهم التعب وأنهك قواهم الوقوف وطول الانتظار، فهم في معظمهم من الكادحين الذين يكدون ويشقون طوال يومهم من أجل تحصيل لقمة عيشهم، ليعودوا آخر النهار إلى بيوتهم راجين أن يجدوا فيها راحتهم سويعات قبل أن يعاودهم الشقاء مع بزوغ فجر يوم جديد، وأخيراً وبعد طول انتظار جاء الحاكم العسكري وأمر الجنود بالبدء في تفحص المحتجزين.

كان جنود الاحتلال يبحثون عن شاب بسنٍّ ذهبية، ادعى أحد المستوطنين أنه اعتدى عليه، ولتحديد المشتبه به كان الجنود يطلبون من كل واحد فتح فمه لاستعراض أسنانه، وقد وصل دور الكشف إلى صابر، نظر إليه الجندي باستخفاف بعد أن رآه صغيراً وسأله:

- كم عمرك؟
- ١٣سنة
- ولماذا أنت هنا؟
- لأنني رجل كما ترى
- رجل.! إذاً افتح فمك يا رجل.

رفع صابر رأسه في إشارة رفض، عندها استشاط الجندي غضباً وصرخ في وجه صابر:

- أقول لك افتح فمك، يعني افتح فمك، ألا تسمع؟

- لن أفتح فمي.

رفع الجندي يده ليبطش بصابر، فما كان من صابر إلا أن انتفض كالليث وأمسك يد الجندي وثناها بكل عزم وقوة خلف ظهره وألقاه أرضاً

كل المتواجدين في الساحة بما فيهم الحاكم العسكري يراقبون الموقف وكأن على رؤوسهم الطير، وقد أصابهم الذهول وصعقتهم المفاجأة.

امتزج بدواخل رجال المخيم الموقوفين مشاعر فرح، يفرحون لمشهد طفل من أبنائهم يصرع جندي من جنود «الجيش الذي لا يقهر»، في الوقت الذي لم يملك أحد منهم من الجرأة والشجاعة التي امتلكها هذا الطفل الصغير، حتى إنهم فرادى ومجتمعين لم يبدوا أي احتجاج أو تبرم لإهانة وإذلال جنود الاحتلال لهم، رغم أن في داخل كل واحد منهم من الغيظ والحنق ما لو أُسقط على جبل لهدّه، لكن العجز يقعدهم، والخوف يسيطر عليهم ويقيّدهم بقيود لا فكاك منها.

أما الحاكم العسكري وجنوده فكأنما غشيت وجوههم قطع من الليل المظلم لما حلّ بهم من الخزي، وأضافوا إلى خزيهم خزياً وعاراً عندما انهالوا على صابر الصغير بالضرب، وأفرغوا جام غضبهم، ثم حملوه وألقوا به خارج الساحة، وعادوا ليكملوا ما بدأوه، وكأن شيئا لم يكن.

أما صابر، فعلى الرغم مما حل به من أذى وألم، إلا أن نشوة الانتصار أنسته كل آلامه وأوجاعه، وجعلته يتسامى ويتعالى على الألم، كيف لا وقد أصبح يرى نظرات الاعتزاز والإكبار في عيون من كانوا يرمقونه من قبل بنظرات الازدراء والاحتقار.

وقد عُرف صابر برجاحة عقله، ودماثة خلقه، ورهافة حسّه، ومع ذلك، فإن معظم أولاد جيله كانوا يبتعدون عنه، ولا يصادقونه لمظهره الرثّ، وواقع الفقر الشديد الذي يعيش فيه.

وعلى الرغم من حداثة سنه، كان يشعر بنفوذ «ربائب النعمة» وازدرائهم له، وكثيراً ما كان يجلس وحيداً، شارد الذهن، مهموم البال يشكو الزمان وتصاريف القدر، يقول في نفسه:

- أمن العدل أن أبقى على هذه الحال، رث الثياب، فارغ الجيب، وأنا المتفوق في دراستي، المتقدم على أقراني، بينما ينعم سائر الأولاد بأفضل الملابس، وأطيب الطعام، وجيوبهم دائماً منتفخة بالنقود وهم في معظمهم كالخراف السمان، عقولهم مقفلة، وحسّهم بليد.. أين العدل في هذه الدنيا؟.

طفح كيل صابر، ولم يعد يحتمل مزيداً من نظرات الاحتقار والازدراء في عيون الناس، ومما زاد الطين بلّة، أنه ذات يوم وهو عائد إلى منزله اضطره ضيق الطريق وازدحامه بوسائط النقل للمرور من مكان ملاصق لأحد أبناء الذوات، ولاحظ صابر كيف كان، ابن الذوات هذا، يتحاشى الاحتكاك به، ويرمقه بنظرات ملؤها الاشمئزاز والازدراء، اسودت الدنيا في عينيه، وضاق صدره وغشيته الهموم، وتلبّسته الأحزان فتمكنت منه واستحوذت عليه، عاد إلى أمه كي يفرغ عندها ما اعتمل في صدره:

- قولي لي يا أماه، إلى متى أبقى على هذه الحال، كل الأولاد يسخرون مني، و يهزؤون بي، كأنهم يحسبونني لقيطاً أو متسولاً.

ثم اندفع نحو أمه، وألقى بنفسه في حضنها والدموع تسيل سخيّة من عينيه، وهو يقول بصوت محزون، وقد تحشرجت الكلمات في حلقه:

– لقد سئمت من هذه الدنيا، وضقت بها ذرعا يا أماه.

كلمات جاءت أشد وقعا على أمّه من عمل المبضع في جسدها، لكن ما حيلتها وهي امرأة وحيدة لا معيل لها، تعتاش وابنها بما تجود عليهما بعض النسوة من الحي مقابل ما تحيكه أم صابر لهن من ثياب، وهو مردود قليل لا يكاد يكفيهما قوت يومهما، حبست أم صابر الدمع في عينيها وكظمت غيظها وحزنها في صدرها، وأخذت برأس ابنها، وضمته إلى صدرها، وراحت تمسح عليه بيدها، ولم تجد أمامها إلا أن تعلله بالأماني، فأخذت تهمس في أذنه بصوت هادىء:

– لا تبتئس يا بني فما بعد الضيق إلا الفرج، وقريباً، إن شاء الله، يتوفر لدينا بعض المال وسأشتري لك به ملابس جديدة، لا تلقي بالا لما يقوله الأولاد، ولا تحفل بهم، يكفيك فخرا أنك ابن شهيد، وسرعان ما ستنقضي هذه الأيام الصعبة المريرة وتصبح ذكرى تقصها على أولادك عندما تكبر وتصبح مهندساً كبيراً وتحقق جميع آمالك.

سكتت قليلاً تلتقط دموعها بصمت واستدركت:

– الا تريد أن تصبح مهندساً؟

ابتلع صابر ريقه، وعقد يديه خلف ظهره، ومضى في سبيله تاركاً أمه تتجاذبها الهواجس والأفكار، تروح بها وتجيء، وأول ما جال في خاطرها حال ابنها اليتيم، وضيق حالها، وقله حيلتها، وأجرى الله على لسانها قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾، وأخذت تتفكّر في المعنى الشامل لهذه الآية الذي لم يسبق أن فطنت له أو خطر ببالها، فقد كانت تظن أن قهر اليتيم يكون فقط بلطمه أو أكل ماله، أما اليوم فقد باتت تدرك أن المعنى أوسع

وأشمل، تدرك أن قهر اليتيم يمكن أن يكون بنظرة حقد أو كلمة ازدراء، وهي لا تدري كم تحدث هذه الكلمة أو تلك النظرة في نفس الطفل اليتيم من ألم، كم تحزنه وتؤرقه وكم تعكر صفوه وتسلب فرحه، إنها أشد مضاضة على النفس من وقع السنان.

ما أجمل وأبلغ التنبيه القرآني للمؤمنين: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً﴾، تقول في نفسها وهي تستحضر هذه الآيات:

– ما ضرّك أيها الإنسان لو نزعت من قلبك القسوة والغلظة، وزرعت بدلا منها الرأفة والرحمة؟ أما كان للحياة معنى آخر أفضل وأجمل؟

ثم هاجت بها الذكريات وطار بها الشوق إلى بلدتها الأصلية التي هاجرت منها، وإلى منزلهم الرحب الواسع المتربع على سطح الجبل، تحفّه أشجار التين والزيتون واللوز والرمان والليمون، وشدها الحنين إلى نبع الماء، وزقزقة العصافير وتغريدها، وحقول القمح، والعشب الأخضر، والنبت البري، والزعتر، والنسيم العليل المفعم بشذا الليمون، وعبق الورود والأزهار، الذي ينعش الروح، ويبعث في النفس الطمأنينة والراحة، حنّت إلى أهل القرية الذين كانوا يعيشون بأمن وسلام ووئام متحابين كأنهم في تكافلهم وتعاطفهم وتراحمهم عائلة واحدة قبل أن يتداعى عليهم «شذاذ الآفاق» فيخرجوهم من قريتهم، ويستوطنوها بعد أن أحالوا أمن الناس خوفاً، وعزهم ذلاً، وغناهم فقراً، وجمعهم أشتاتاً وتمزقاً.

هام بأم صابر الحنين، فشهقت شهقة خرجت من أعماقها، وذرفت من عينيها دمعتان، وتمتمت بصوت حزين يحمل في نبراته الأسى واللوعة:

– أوّاه... ليتنا متنا في أرضنا ولم نخرج منها، إن النبتة إذا اقتلعت من أرضها ذبلت وذوت، فكيف بالإنسان الحر الأصيل؟

ثم استفاقت أم صابر من شرودها، وقامت من فورها تتفقد ابنها فوجدته يغطّ في نوم عميق فأسدلت عليه غطاءً، وتركته لأحلامه.

كانت تلك الليلة التي عاش صابر الأحلام فيها، ليلة ليلاء، فقد رأى أباه الشهيد يأتي إليه من بعيد بلباس ابيض ناصع، يقترب منه ويمسح على رأسه ويقول:

– إن الله لمّا قسم بين الناس معيشتهم في الحياة الدنيا لم يظلم أحدا، ولكنّ نعمَ الله يا بني ظاهرة وباطنة، فمن الناس من كان حظه من عرض الحياة وافرا، لكنه مع ذلك لم يسلم من ابتلاء هنا وهناك في ماله أو أهله أو جسده أو دينه أو خلقه، ومن الناس من كان حظه من الدنيا قليلاً، ولكنه مع ذلك أوتي من الرضا والقناعة وسلامة الدين وحسن الخلق ما لم يعطَ لكثير من الأغنياء، فأنت يا بني إن كنت ممن قدر عليه رزقه، فإن الله قد حباك بصفات ليست في كثيرين غيرك، أترضى أن تستبدل نباهتك وفطنتك وحسن خلقك بما في أيدي أغنى الناس من مال؟

أجاب صابر بعفوية وبراءة:

– لا يا أبتِ، ولكن ما الضير في أن يجمع المرء بين هذا وذاك، بين المال والحياة وسلامة الدين وحسن الخلق؟

– لا ضير يا بني، ولكن لله حكمة في كل أمر، ألا ترى معي أن الإنسان إن حاز الخير جلّه ضعفت همته، وقلّت عزيمته، وركن إلى ما في يديه، أي بني ارضَ بما قسم الله لك، وتوكل عليه، وثق بتدبيره لك، ولا تنظر لما في يد

غيرك يرتاح قلبك، وتسكن نفسك، وتصفى روحك، وليكن شعارك في هذه الدنيا دائماً قول الشاعر:

قد يدرك الشرف الفتى ورداؤه خلق وجيب قميصه مرقوع

استفاق صابر من نومه وقد سكنت نفسه، وذهبت همومه، وانجلت أحزانه، وانشرح صدره، قام فقبل يد أمه ورأسها وراح يستقبل يومه الجديد بهمة وعزيمة ونشاط.

(٢)

أحلام وحقائق

هـدوء يخيم على المكان فيوحي بالسكون والخشوع، ونفحات نسيم الصباح العليل تهبّ لطيفةً ناعمة، تلامس وجوه الناس فتنعشهم، تتخلل الروح فتزيدها صفاء ونقاءً، وتتسلل إلى العقل فتشحنه وتحفزه، وإلى القلب فتبعث فيه السعادة والأمل.

صابر أبكَر في الذهاب إلى المدرسة، وجلس على المقعد الذي اعتاد الجلوس عليه في كل يوم، وكانت فترة الخلوة هذه محببة إلى نفس صابر، يجد فيها فرصة ليخلو مع نفسه، يترك العنان لأفكاره وخواطره كي تحلّق بعيداً عن ضوضاء المدرسة وصخبها والتلاميذ وقد ضاق بهم ذرعاً وهو يراهم إضافة إلى ضآلة أجسامهم، عقولهم صغيرة، واهتماماتهم تافهة، أما هو فقد فرضت عليه الحياة أن يعيش رجولة مبكّرة بكل معانيها، يشعر أنها تملأ عليه فكره وروحه... كيف لا وهذه الساحة شاهدة، تذكّره كل يوم ببطولته وجرأته يوم صرع «جندي الجيش الذي لا يقهر».

لم تطل خلوة صابر كثيرا في ذلك اليوم، فقد بدأت الحركة تنشط شيئاً فشيئاً حتى أصبحت الساحة تعج بالطلبة وضجيجهم وجلبتهم، وقد

التفّ بعضهم حوله يسألونه في مسائل عن الدراسة والواجبات المدرسية التي أشكلت عليهم، وفي أثناء ذلك عرض عليهم خالد، وهو أبرز الطلبة المشاكسين في المدرسة فقال وهو يغمز بسخرية:

– لا أدري لم تتعبون أنفسكم هكذا في الدراسة، أمن العقل أن نتعب ونشقى سنين طوال ليتخرج الواحد منا بعد ذلك موظفاً بسيطاً بمرتبٍ متواضع يمكن لأي عامل أو صاحب حرفة أن يجني أضعافه.! فلم لا نريح أنفسنا من هذا العناء «ونأخذها من قاصرها» ونستمتع بوقتنا حتى إذا كبرنا فلا أسهل من أن يجد الواحد منا لنفسه عملاً يعتاش منه..

رد عليه صابر قائلاً:

– لو أن كل الطلبة أخذوا برأيك ما وجدنا طبيباً ولا مهندساً ولا عالماً ولا معلماً، فكيف تستقيم حال المجتمع إذاً؟

أسقط في يد خالد، وسرعان ما استغل صابر فرصة تجمهر الطلبة الذين دفعهم الفضول إلى التجمع، إذ راح يحدثهم حول أهمية طلب العلم ودوره في بناء الأمة ويقول بحماسة:

– إن العرب قبل الإسلام كانوا يعيشون الجاهلية بأسوأ أشكالها وأبشع صورها، جاهلية مقيتة بغيضة، جاهلية سلوك واعتقاد، ولم يكن لهم بين الأمم والحضارات أي وزن أو اعتبار فبعث الله لهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، جاءهم بالبينات والهدى، وأمرهم بالعلم، وحضهم على طلبه: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وكان القرآن الكريم المعجزة التي نزلت على قلب رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم،

كتاباً من الله تتلى آياته، وكانت كلمة «اقرأ» هي مفتتح التنزيل. وبينما هو يتحدث إليهم وهم منصتون، تذكّر ما كان قرأه قبل أيام في نشرة توجيهية حريصة على أمور الدين، وصلاح الدنيا، فقال وكأنه يقرأ لهم كتاب:

- بالعلم والحكمة انتقلت الأمة بسرعة مذهلة من القاع إلى القمة، وبنى المسلمون حضارة متميزة رائدة في كل الجوانب والنواحي الحياتية، وبرز المسلمون الأوائل وبرعوا في كل العلوم «الطب والرياضيات والكيمياء والعمارة والفلك»، وكانت كل الأمم والحضارات تقتبس من علومهم وتلتمس من نورهم، ثم خلف من بعدهم خلف أخلدوا إلى الأرض واتبعوا أهواءهم وقعدوا عن طلب العلم فبدأت الجاهلية تطلّ برأسها من جديد، وبينما كان المسلمون غارقين في خلافاتهم، سادرين في جهالتهم كان العالم يشهد ثورة علمية وصناعية كبيرة غيرت مجرى التاريخ وأعادت رسم خريطته من جديد على أسس ليس فيها مكان للضعفاء والجاهلين، وهكذا أضعنا إرث آبائنا، وهدمنا بأيدينا ما بناه سلفنا بجهدهم وعرقهم ودمهم، ووقفنا على الأطلال نندب ونبكي بعد أن أصبحنا أمّة ذليلة مهينة مستضعفة مستباحة الحمى ومهيضة الجناح. ودفعنا نحن أهل فلسطين ثمن تخلف الأمّة وجهلها، فاحتُلّت أرضنا، وذلّ شعبنا، وتمزق كل ممزق. ومع أن الأمة تكاد تجمع على أن حالها لا يصلح إلا بما صلح به أولها، إلا أنها لا تنهض ولا تتقدم ولو خطوة واحدة في سبيل ذلك، كأنما استمرأت الذل والمهانة ورضيتهما وألفتهما، وإذا كان طلب العلم واجباً على كل مسلم، فهو في زماننا هذا أوجب، وعلينا نحن أهل فلسطين أوجب وأوجب.

قرع الجرس فقطع قول كلّ خطيب، وانفض الطلبة كل إلى فصله، وبعد

انتهاء الدوام مشى صابر وصديقه إبراهيم معاً في طريق عودتهما، قال إبراهيم لصابر:

– لقد أحسنت فيما قلته اليوم في المدرسة، فقد وضعت إصبعك على الجرح وأوجزت، وأبنت، لكن وبمعزل عن ذلك فإني في حيرة من أمرك يا صاحبي.!

– وفيما حيرتك؟

– رغم أنك أغلظت القول لخالد، إلا أني أرى أن علاقتك به وبمن هم على شاكلته تتعزز يوما بعد يوم.!

ابتسم صابر وقال:

– يا صاحبي اعرف الخير كي تتمسك به، واعرف الشر كي تتجنبه، على كل حال هي مجرد علاقة عابرة، إن لم تفد يوماً ما، فلا أظنها تضرّ.

– أنصحك يا صاحبي أن تبتعد عن هذه الشلّة، فإن لهؤلاء «الأبالسة» أساليب شيطانية في الإيقاع بالآخرين، وجرّهم لمواكبتهم شيئاً فشيئاً، وخطوة خطوة حتى يجد الواحد نفسه عالقاً فيما هم فيه عالقون، وكما تعلم فإن السيئة تأتي بمثلها، والخطيئة تجر أختها.

– وما الذي يفيد هؤلاء من الإيقاع بغيرهم؟

– حتى لا يكونوا فرادى يشار إليهم بالبنان ويلومهم الأهل ويهجرهم الخلان، لذلك فهم يبذلون ما بوسعهم من جهد لتكثير جمعهم، فيكونوا فيها سواء، فلا يلومهم لائم ولا يعاتبهم معاتب.

– أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين، أنا يا أخي لست من هذه الطينة، لكنني لا اكتمك سرّاً فقد وجدت عند هؤلاء من الجرأة والشجاعة ما لم

أجده عند غيرهم، ولعل هذا ما دفعني للتقرب منهم.

– إن لم تكن الجرأة والشجاعة في الخير وللخير والحق فهي وبال على صاحبها.

– ولم لا نأخذ بيد هؤلاء ونستثمر جرأتهم وشجاعتهم في الخير فيقلعوا عن السوء والشر.!؟

– على الرغم من أن ذلك ليس بالأمر الهين إلا إنني أسأل الله أن يقيض لهم من يأخذ بأيديهم إلى سواء السبيل.

– ولم لا نكون نحن من يفعل ذلك؟

في تلك اللحظة صدح صوت المؤذن، وكانا قريبين من المسجد، فدخلا وأديا الصلاة، ثم تفرقا كلّ إلى منزله.

دخل صابر منزله منهكاً متعباً، وضع حقيبته جانباً، وألقى بجسده على السرير، وسرعان ما استغرق في إغفاءة عميقة.

رأى صابر نفسه وقد كبر وأصبح شاباً وسيماً، يعيش حيوية ونشاط وقد خطّ شاربه، متناسق الجسم، مفتول العضلات، يرتدي أجمل الملابس وأغلاها، ويستعمل أطيب العطور، وقد دخل الجامعة والتحق بكلية الهندسة كما كان يحلم طوال عمره.

في الجامعة حيث يختلط الطلاب بالطالبات، لا يفصل بينهم حجاب، كانت عشرات الطالبات يرمقنه بنظرات الإعجاب، ويتقربن منه، إلا أن قلبه لم يخفق إلا لواحدة من بينهن، أحبها حبّاً جارفاً، واستحوذت على قلبه وعقله، فقد وجد فيها كل ما كان يتمناه بفتاة أحلامه، طلتها حاضرة، ووجهها مشرق، وفي عينيها نظرة سحر صافية، شعرها طويل وناعم كما

الحرير، وقوامها متناسق، وأنوثتها طاغية، وقد أضاف حياؤها جمالاً فوق جمال، فتم لها الحسن كاملا.. لم يتردد في خطبتها، والاقتران بها.

كانت تلك الفترة من أجمل أيام حياته، شعر أنه استوفى نصيبه من الدنيا، ولم يعد يطمع بمزيد، فقد حاز الحب والسعادة والأمن والرخاء، فأيّ شيء بعد ذلك يريد؟ وبسرعة مذهلة أنهى دراسته الجامعية، وتخرج مهندساً معمارياً كبيراً، وبأسرع من ذلك وجد وظيفة محترمة، استطاع من خلالها أن يوفر حياة كريمة له ولعائلته، وأن يشتري قطعة أرض ويقيم عليها بيتاً كبيراً كالقصر، غاية في الروعة والجمال، كأنه تحفة معمارية أشرف بنفسه على بنائه حتى تم واكتمل ولم يعد ينقصه شيء، ولم ينس أن يحيطه بحديقة من الأشجار والورود والأزهار وحوض ماء مرصع بأجود الأحجار.

وجاء اليوم الذي انتظره طويلاً فاستقل سيارته الحديثة الفارهة، وانطلق بها مسرعا كأنه يسابق بها الريح، يجوب الشوارع باتجاه المخيم، وما أن وصل إلى منزله حتى حمل أمه معه، وعاد بها إلى قصره المنيف، يخاطبها ويقول:

- اليوم تقبرين الفقر والشقاء، وستودعين البؤس والعناء، ستعيشين كما الملوك، تأمرين فتطاعين، وتطلبين فتجابين.

ثم ما لبث أن وصل إلى منزله الجديد، فأوقف سيارته ونزل منها مسرعا وفتح الباب لأمه وأمسك بيدها وهو يقول:

- هيا يا أماه، انزلي وانظري إلى ما أعددته لك من مفاجأة..

فتح صابر عينيه على صوت أمه تهز يده وهي تقول:

- انهض يا صابر فقد استغرقت في النوم طويلاً.

استيقظ صابر من نومه ليعود من عالم الأحلام الجميلة، إلى عالم الواقع والحقيقة المرّة.

توجه صابر إلى مدرسته صباحاً وما زال أثر ذلك الحلم يملأ رأسه، وكان السؤال الذي يلح عليه، يراوده ولا ينفك يعاوده:

- هل يمكن أن يأتي يوم يصبح فيه هذا الحلم حقيقة؟

يتحدث إلى نفسه ويمنيها قائلا:

- ولم لا.. أليست أحلام الأمس حقائق اليوم، وأحلام اليوم حقائق الغد؟

ثم ما يلبث أن يتسلل اليأس إلى نفسه ويستحوذ عليها فيقول:

- لكن الأحلام الجميلة عادة ما تصطدم بجدار الواقع، ثم تنكسر وتندثر.. هل نسيت نفسك يا صابر؟ ما أنت إلا ابن امرأة لاجئة تحيك الثياب لجاراتها لتجمع لك بضعة قروش تعيلك بها.

وبينما هو على هذه الحال شارد الذهن هائم الفكر تراءت له من بعيد هيئة صديقه إبراهيم، وقد أذهله المنظر الأنيق الذي بدا عليه، فقد كان حاله من حاله «رث اللباس وشعاره الإفلاس» فأخذ يتفحصه من رأسه حتى أخمص قدميه وهو يقول باستغراب:

- أنى لك هذا، هل وقعت على كنز؟ أم هل سرقت وهل.. وهل....!!؟

- رويدك.. رويدك.. كل ما في الأمر أنني أصبحت أعمل بعد انتهاء الدوام المدرسي.

- وماذا تعمل؟

- ماذا يمكن لمثلي أن يعمل؟ أعمل في «محجر» حمّال أحجار، منزّل أحجار، للأحجار جرار....

يقاطعه:

- لكنه عمل شاق.

- أجل إنه كذلك.. ولكن ما حيلة المضطر، لا تخف يا صديقي، سرعان ما ستعتاد على ذلك.

- أعتاد! أفهم من كلامك أنك تعرض علي العمل معك.

- ولم لا، ألا تريد أن تحسن من وضعك.

- بلى، ولكن الأمر يحتاج إلى تفكير.

- يا صاحبي، أمثالنا ليس لهم حتى أن يحلموا بالعيش الرغيد، والحياة المرفهة، نحن خلقنا كي نكد ونتعب ونشقى لنؤمن حياة الكفاف، ولا نتطفل على الناس، فكل يوم يأتي يحمل معه قائمة متطلبات جديدة ولا ينصرف حتى يستوفيها، وقد آن لنا أن نتحمل المسؤولية ونخفف العبء عن أهلنا.

- صدقت يا صاحبي، وإن كان أحد عليه أن يكد ويتعب ويشقى فهو أنا، ولست بالذي يتخلف عن تحمل مسؤوليته.

بدأ صابر عمله في المحجر بجد ونشاط وهو يعد الأيام يوما بعد يوم، وساعة بعد ساعة، بانتظار نهاية الأسبوع حتى يقبض أول مبلغ يجنيه بكد يده، وعرق جبينه، وما أن وقعت يده على المبلغ حتى انطلق به مسرعاً إلى أمه ووضعه كاملا في يدها، وهو يدرك كم يعني لها ذلك، يعني أن تربيتها وتضحياتها قد أتت أكلها، وأن تعبها وشقاءها لم يذهبا هدراً، فها هو ابنها يأتيها بأول مبلغ يقبضه من عمله، ومن عرق جبينه، ولم يذهب به ليصرفه على نفسه رغم حاجته الماسة له، ورغم سني الحاجة والفقر والعوز التي عاشها.

اكتفت أم صابر بفرح قلبها الذي أدخله عليها ابنها وأعادت إليه المبلغ كاملاً وقالت له:

- خذه يا بني واشتر به ملابس جديدة وأصلح من شأنك.

- ولكن يا أمي....

تقاطعه بحزم:

- يا بني أنت بحاجة إلى المبلغ أكثر مني فلا تجادلني..

استعاد المبلغ من يد أمه، وانطلق من فوره إلى سوق المدينة ليشتري ملابس جديدة، يقبض على المبلغ بقوّة، وينقله من جيب إلى الآخر سعيداً به، وحريصاً عليه.

لا شكّ في أن مبلغاً مهما كان قليلاً يعني الكثير لفقير لم يسبق وأن أمسك بنقود، وهي نقود لم تأت حسنة أو إحساناً من أحد، بل من كدّه وعرق جبينه، لذلك فهو يحسب ألف حساب قبل أن ينفقه في غير موضعه، ليس بخلاً، ولكن تقديراً وحرصاً، ولو كان هذا المبلغ أو أضعافه في يد ابن غني لأنفقه دون حساب، وعلى أتفه الأمور والأشياء، ليس جوداً ولا كرماً، وإنما إسرافاً وتبذيراً، ففقدان ما يأتي سهلاً، ليس بأمر ذي بال.

عاد صابر من السوق وقد اشترى ما استحسنته عينه من ملابس، وأسرع يجمع ثيابه القديمة ليتخلص منها، فقد كادت فرحته بالخلاص منها تضاهي فرحته بملابسه الجديدة، فقد كان يراها همّاً يلازمه ولا يفارقه، وقد حانت ساعة الفراق، فألقاها مبتسما وهو يتمتم:

- وداعا رفاق «نكد الدنيا» فما كان لي من صداقتكم بد.

واصل صابر الجمع بين عمله والدراسة محافظاً على تفوقه، ولم يكن

ذلك بالأمر الهين، فقد تطلبّ الأمر منه أن يتخلى عن كل أوقات الفراغ التي كان يستغلها باللعب والترويح عن النفس كباقي أقرانه.

وفي تلك الفترة من حياته، عانى صابر الكثير الكثير، قاسى من ألم البرد وقره، ووهج الصيف وحرّه، وكثيراً ما أدميت أصابع يديه وقدميه، وكثيرا ما أضناه التعب وأنهكه النَصَب، لكنه ما كلّ ولا ملّ، حتى أنهى مرحلة الدراسة الثانوية العامة بتفوق ونجاح.

(٣)

الجامعة

ليس أسوأ على المرء من أن يتسلل اليأس إلى نفسه، فيشعره بالعجز وقلة الحيلة وفقدان المقدرة..

إنه محاصر بلا أسوار، مكبل بلا قيود

لن يحصد ما بذر أو زرع

لن يجني شيئاً بعد أن جدّ واجتهد..

هكذا كان شعور صابر بعد أن تخلى قسراً عن آماله، ورأى كيف تتحطم أمام ناظريه أحلامه،

فقد أظلمت عليه الدنيا في الوقت الذي حسب أنها أشرقت.

وها هي تحزنه يوم فرحه..

وتعبس في وجهه وقد ظنّها تضحك له.

يومذاك.. عاد صابر من الجامعة مهموماً محزوناً، حاول، بابتسامة مصطنعة، أن يخفي عن أمه حجم الحزن الذي يشعر به، لكنها أمّه، وأقرب الناس إليه، وهي تفهمه، وتستطيع أن تقدّر حاله وحالته.

أم صابر تدرك أن ولدها يخفي عنها شيئاً، وهذا التصنّع الذي يبديه

لا يمكن أن يسرح بها إلى غير الوجهة التي تثق بها من خلال مشاعرها كأم، وقد أدركت بقلبها قبل عينيها أن خطبا ما أصاب فلذة كبدها، فأحزنه وسلبه سروره، وأذهب فرحه، فأقبلت عليه تستوضح منه الأمر، وتستجلي ما ألم به، وراحت تسحب منه الكلام بهدوء ورقة، فسألته:

- ألم تذهب كي تسجّل في الجامعة؟ وما الذي حدث معك؟

- لقد سجّلت.. لكن.!

- لكن ماذا؟

- التسجيل في كلية الهندسة اكتمل، فاضطررت للتسجيل في كلية العلوم.

لم يرد صابر أن يخبر أمه بالحقيقة، وأن نحس الفقر لا يزال يلاحقه، وأنه لم يستطع التسجيل في كلية الهندسة لارتفاع أقساطها، وحتى في كلية العلوم إن أراد أن يستمر في الدراسة فيها، فعليه أن يحصل على تفوّق ليضمن إعفاءً جزئياً من أقساطها.

أدركت أم صابر حجم الحزن الذي ألم بابنها، فهي تعرف كم تعني له كلية الهندسة، وتعرف معنى أن يفقد في لحظة حلم حياته الذي تعب وجد واجتهد من أجل تحقيقه، فكان حزنها أكبر من حزنه، وألمها أكبر من ألمه، لكنها صاحبة القلب الكبير الذي يتحمل الأسى فيضمره ولا يظهره.. ضمته إليها، وأخذت تربت على كتفه، وتمسح على شعره بحنان كما كانت تفعل وهو صغير، تهمس في أذنه بكلمات هادئة سلسة تدخل الأذن دون إذن، تحمل في مضامينها عاطفة الأم ورقتها وحنانها، كأنها السحر بعينه، قالت:

- لا تحزن يا بني، وطب نفساً، فالخير فيما اختاره الله لك ﴿**وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ**﴾.. واعلم يا بني أن كثيراً ممن هم في مثل

سنك يتمنون ويتشوقون أن يصلوا إلى ما وصلت إليه، أو حتى إلى شيء قريب منه ولا يستطيعون، فاحمد الله تعالى، وارض بما قسم لك، وانظر إلى من هم دونك، ولا تنظر إلى من هم أعلى منك.

وراحت تمازحه وتضاحكه حتى تأكدت أن ثائرته هدأت، وانشرح صدره، وعادت البسمة إلى ثغره.

عادت الحياة إلى الجامعة من جديد بعد سبات استمر طويلاً، وأخذ الطلبة يتوافدون إليها من كل أصقاع الوطن؛ كلّ قدم يلبس أفضل ما عنده، ترى الفرحة على وجوههم، والبسمة ترتسم على محياهم.

في يوم مشمس جميل، أبت فيه الشمس إلا أن تشاركهم فرحتهم، فأرسلت أشعتها دافئة في غير أوانها، تداعب وجوههم فتزيدها إشراقاً واستبشاراً، وقد أضاءت ما حولهم، وأسكنت الريح كي لا تعبث بشعورهم وثيابهم، أو تثير الغبار حولهم، وقد أقبل بعضهم على بعض يتصافحون ويتعانقون ويتحادثون، وكان مشهد الرفاق هذا بعد طول فراق مشهداً مهيباً استوقف «صابر» مليّاً وهو يتأمل الجميع بانتظار قدوم صديقه أيمن الذي وعده أن يصحبه بجولة تعرّف على أقسام الجامعة.

وايمن هو جار لصابر في المخيم وطالب قديم في الجامعة، لم يطل انتظار صابر فما لبث ايمن أن قدم واصطحبه وراحا يجوبان أنحاء الجامعة وهما يتبادلان أطراف الحديث، قال أيمن:

- الجامعة حاضنة خيرة أبناء المجتمع، يدفعون إليها بفلذات أكبادهم، وبمن هم أكثر ذكاء وفطنة ونباهة، فعليها أن تؤدي رسالتها على أتم وجه بحفظ هؤلاء الشباب، وتزويدهم بالعلم والثقافة والفهم والمعرفة حتى يكون

الشاب مفيداً لأمته وقضيته، ولا يصبح عالة على المجتمع، يأخذ أكثر مما يعطي، ويضر أكثر مما ينفع، هذا إن أعطى شيئاً أو نفع.

– وهل تقوم جامعتنا بالدور المطلوب منها على نحو ما ذكرت؟

– الأمر يتوقف على مدى الجهد الذي يبذله الطلبة، وعلى مدى كفاءة الأساتذة وإخلاصهم، وفي زمننا هذا ليس سهلاً أن تجد من يجمع بين الكفاءة والإخلاص، وإن وجد فهو قليل.

– وماذا عن الطلبة، هل يؤدون المطلوب منهم؟

– إنهم عالم من الأضداد، هل ترى ذلك الشاب الواقف قبالتنا؟

– أجل.. ما به؟

– لو تعرّفت عليه عن قرب، لوجدت أن هذا الماثل أمامك عبارة عن بنطال جينز، ونظارة، وقصة شعر، وسيجارة.. لا أكثر! فهو جسد بلا روح، خال من أيّ أفكار أو مبادىء، كل همه ترتيب ثيابه، وترطيب صوته، والتلوي في مشيته، عندها ستقول: كيف يمكن أن تؤدي الجامعة دورها بأمثال هؤلاء؟

– ولكن أليس بين الطلبة من يسعى إلى علم وثقافة وفهم وأدب؟

– بلى... وهم كثر، سأعرفك خلال جولتنا هذه بشاب اسمه عماد، هو مثال للطالب الجامعي المجتهد، الخلوق، الملتزم بأمور دينه، المتفوّق بدراسته.

– لقد شوقتني للتعرف عليه.

– ذلك لأنك طيب الأصل مثله، فالأرواح جندٌ مجنّدة.

– أسأل الله أن أكون عند حسن ظنك.

ثم استدرك يسأل صديقه:

– وماذا عن طالبات الجامعة؟

– لا شك في أن الجامعات في فلسطين تعتبر بسبب واقع الاحتلال مراكز أساسية لتأطير الشباب وتنظيمهم، فكل تنظيم فلسطيني له امتداده وسط الطلاب داخل الجامعة، فالكتلة الإسلامية امتداد للحركة الإسلامية، أو جماعة الإخوان المسلمين، وكتلة الشبيبة امتداد لحركة فتح، وكتلة العمل الطلابي امتداد للجبهه الشعبية، وكتلة الوحدة امتداد للديمقراطية، وكتلة الاتحاد امتداد للحزب الشيوعي، وتبلغ المنافسة بين هذه التنظيمات أشدها مع بداية كل عام دراسي، حيث تبذل كل كتلة جهدها في استقطاب ما أمكنها من طلبة جدد، كلّ يحيي ويرحب ويهنئ ويحبب.. مؤتمرات وخطابات، حفلات تعارف ويافطات.

– وما الذي يميّز كل كتله عن الأخرى؟

– لكل كتلة اطروحاتها الفكرية الخاصة بها، فالكتلة الإسلامية تتبنى شعار «الإسلام هو الحل»، وتنادي بالتزام الإسلام بمفهومه الشامل عقيدة وعبادة ومنهج حياة، وهي تلتزم به فكراً وسلوكاً، أما حركات اليسار «الشعبية والديمقراطية والحزب الشيوعي» فهي تتبنى الفكر الاشتراكي الثوري، لكنها تختلف في بعض التفاصيل التي غالباً ما تتحكم بها المصلحة الحزبية والفردية، أما الشبيبة فهي تنادي بالتحرر، وتتغنى بالثورة، وتترك للفرد حرية الفكر والسلوك والاعتقاد، فهي أقرب ما يكون إلى المنهج العلماني.

– وأي هذه التنظيمات أكبر تأثيراً وحجماً؟

– الكتلة الإسلامية والشبيبة هما من أكبر هذه الحركات والمنافسة بينهما دائمة الاحتدام وانتخابات مجلس الطلبة هي الفيصل وهما فيها كفرسي رهان، ما أن تتقدم إحداهما حتى تعود وتتأخر، وما أن تتأخر حتى

تعود وتتقدم، وهكذا دواليك.

التفت أيمن فرأى «عماد» يقف غير بعيد منهما فقال لصابر:

– ذاك عماد الذي أخبرتك عنه، هيا بنا كي أعرفك به، وفي الوقت ذاته ندعوه إلى المقصف كي نتناول غداءنا معاً، فقد لقينا في جولتنا هذه نصبا.

ثم أضاف وهو يبتسم:

– طبعا هذه «الدعوة» على حسابي إلا إذا ألحّيت أن تدفع أنت.!

ابتسم صابر وقال:

– إذاً أبشر بطول جوع يا أيمن.

(٤)

ميلاد.. وميلاد

شهادة للتاريخ

أحس صابر بالنعاس يتسلل إلى جفنيه، على الرغم من أن الأفكار والخواطر تتدافع في رأسه فتثقله، تجتاحه رغبة عارمة ليكتب شيئاً، جعلته ينفض عنه غطاءه وينهض من فراشه، يلتمس أوراقاً وقلماً، وكان قد مرّ عليه زمن لم يلمس فيه كتاباً ولا كراساً ولا قلماً منذ أن اندلعت أحداث الانتفاضة، وعندما أغلقت الجامعة أبوابها بسبب تلك الظروف، حيث كان عنده ما يشغله، سرعان ما أخرج دفتراً وقلماً، وعلى ضوء خافت راح يكتب:

- أعلم أنه سيأتي يوم يحاول فيه البعض تزوير التاريخ، أن يطمسوا الحقائق ويقلبوا الأمور، أن يشوهوا سيرة رجال أحرار شرفاء، وأن يقزّموا صفات النبل والوفاء والأصالة والفضيلة وكل المعاني الجميلة فيهم.. أن يجمّلوا وجوهاً قبيحة، ويزينوا الرذيلة ثم يقدموها للناس ويقولوا: ها هي ذي الفضيلة!!

أعلم أن كلماتي هذه قد لا ترى النور أبداً، وقد لا يقرؤها أحد، لكنني أعلن إنني شاهد على مرحلة هامة من تاريخ هذا الشعب، يسطّرها أبناؤه

بدمائهم وجراحهم وعذاباتهم وآلامهم، وحتى لا تضيع الحقيقة في خضم تلاحق الأحداث وتسارعها، وتختلط الأمور وسط هذا البحر الصاخب من الاختلافات والمنافسات والمناكفات، أرى أن الواجب يحتم علي أن أكتب..

إن التاريخ يعلّمنا أن الأحرار هم الذين يشعلون شرارتها، ويدفع ثمنها الشرفاء والأبطال، ويجني ثمارها المتخاذلون والأنذال، فعندما يضيق المحتل أو المستعمر ذرعا بالثورة، ويكبر عليه الثمن الذي تستنزفه منه، ويعجز عن كسر شوكتها أو إخماد جذوتها، فإنه يبحث عن أكثر القيادات السياسية استعدادا للتنازل وقبول «حلول الوسط» ممن يسمون أنفسهم العقلانيين «البرجماتيين» فيعقد معهم «اتفاق تسوية» تتوقف بموجبه المقاومة مقابل وعود وأمان وإنجازات وهمية ومراكز شكلية، وهكذا تدفن الثورة في مهدها وتقتل بيد أبنائها..

إن قيادة تتخلف عن شعبها، يسبقها الشعب إقداماً وتضحية وصموداً وثباتاً، لهي قيادة ضعيفة هزيلة لا تستحق البقاء، ولا أن يدان لها بولاء.. وإن قيادة تقدم مصلحتها الشخصية والحزبية على مصلحة شعبها، وتفرط بحقوقه وثوابته لهي قيادة خائنة غادرة أينما ولت وجهها فلن تأتي بخير، حتى وإن تهيأت لها الأسباب، وفُتحت أمامها كل الأبواب، فلن تقود شعبها إلا إلى استسلام وخراب.

شعر صابر بالرغبة في احتساء فنجان قهوة، وهمَّ أن يقوم ليعدها، إلا أن أمه سبقته إلى ذلك فألفاها لدى الباب تحمل القهوة بيدها وهي تقول:

– رأيت الضوء في غرفتك، فعلمت أنك مستيقظ، وأنك لا بد ترغب في شرب القهوة، فقمت وأعددتها لك.

- وكأنك تقرئين ما في نفسي يا أماه.

- وهل أنت إلا قطعة مني يا ولدي؟

وضعت فنجان القهوة، وخرجت من الغرفة وهي تتمتم بالدعاء:

- حفظك الله، وحماك، وأعمى عيون الظالمين عنك يا ولدي.

أما صابر فاحتسى رشفات من القهوة وعاد يواصل الكتابة:

- وإن الانتفاضة المباركة اندلعت بتدبير رباني محض لا فضل لأحد فيما جرت به المقادير، فلا «المهندس» خطط ولا «القائد» دبّر، وإن كان أحد ساهم أو ساعد فهو الاحتلال نفسه الذي لم يكفه أن سلب الأرض ونهب خيراتها واستعمل أهلها خدما له، يزرعون فيأكل، ويبنون فيسكن، فأخذته العزة بالإثم، وأصابه جنون العظمة والقوة فأعمت بصيرته، فراح يمعن في إذلال الناس وامتهان كرامتهم حتى فاق الأمر كل حد فكان الانفجار، وكانت إرهاصات الانفجار بدأت بالظهور مطلع الثمانينات من القرن الفائت مع ازدياد قوة المدّ الإسلامي واتساع انتشاره بشكل لافت، خاصة في أوساط الطبقة المثقفة، في النقابات المهنية والجامعات والمعاهد التعليمية وقد زاد ذلك من حده التنافس والتجاذب بين الفصائل الفلسطينية، خاصة بين الكتلة الإسلامية، الإطار الطلابي للحركة الإسلامية وحركة الشبيبة، الإطار الطلابي لحركة فتح، التي كانت تتهم الإسلاميين بالتخاذل والتقاعس عن مواجة الاحتلال، الأمر الذي كان يشعل نار الغيظ في صدور الإسلاميين الذين كانوا يتشوقون ويتشوقون في كل وقت أن يؤذن لهم فيه فيشهدون العالم أجمع أنهم الأحق بالجهاد وأهله وأنهم في كل مجال: رجال.. رجال.

إن شباباً تربى في بيوت الله على آيات الجهاد، وسورة الأنفال عقيدته

«الموت أوسع الجانبين وأسعدهما» شعاره

ولست أبالي حين أقتل مسلما على أيّ جنب كان في الله مصرعي

إن شباباً هذه حاله لا يمكن بحال أن يهادن الاحتلال أو يعايشه، بل لا بد أن ينتفض في وجهه ويقاومه ويقارعه، وهذا ما حدث، فما هي إلا أن انفجر الغضب الفلسطيني كالبركان الهادر في وجه المحتل الغادر، انفجر الغضب وأعلن الشعب ثورته، الثورة ولا شيء سوى الثورة، الثورة في وجه المحتل الغاصب الذي سلب الأرض، وانتهك العرض، هدم البنيان وامتهن كرامة الإنسان وأذلّ العباد، وطغى في البلاد فأكثر فيها الفساد، انفجر الغضب، وانتفض الشعب صارخاً في وجه المحتلين:

- لا مقام لكم في أرضنا فارحلوا.. أنتم نبت خبيث يجب أن يقلع.. أنتم رجس حطّ على أرضنا المقدسة ولا بد أن يرفع.

انفجر الغضب، وهبّ الشعب عن بكرة أبيه شيباً وشباباً، أطفالاً ورجالاً ونساءً، كل بما تطاله يده، ومن لم يستطع فبلسانه.

انفجر الغضب وقال الشعب كلمته:

- نحن أمّة حرة حيّة، ما ماتت فينا النخوة والحمية، نرتضي الموت ولا نقبل الدنيّة..

انفجر الغضب وانطلقت الانتفاضة، ومعها انطلقت حركة المقاومة الإسلامية حماس، ولدتا معاً، وكبرتا معاً كأجمل توأمين تساند إحداهما الأخرى وتتقوى بها.

الانتفاضة تقوّي حماس برفع ذكرها، وصقل رجالها، وفتح باب المجد والشرف أمامها، وحماس تزود الانتفاضة بنفوس جبارة تأبى الهوان.

وبالانتفاضة عرف الشعب طريق الحرية والكرامة، وأصبحت ترى في أعين الناس العزّة والإباء بعد أن كانت عيون منكسرة ونفوس مهينة ذليلة، كيف لا وقد خلعوا عن كاهلهم ربقة الذل الذي طوّقهم طويلاً، فذاق الشعب طعم العزّة والكرامة، فهيهات هيهات أن يتخلى عنهما ويعود لما كان عليه، إن للعزّة والكرامة طعم لا يمكن لكل منغصات الأرض ولو اجتمعت أن تكدّره، وعلى الرغم من الثمن الباهظ الذي دفعه الشعب على طريق استرداده لحقوقه، وتحرير أرضه إلا أنه ما زال مصمماً على مواصلة الطريق حتى النهاية، وهو في ذلك يدرك أن نهاية كل ليل دامس فجر صادق.

(٥)

صابر والانتفاضة

أحس صابر مع بدء أحداث الانتفاضة أنه وجد ضالته، فقد جاء اليوم الذي يمكنّه أن يستثمر غضبه وغيظه ومعاناته إلى حجارة ونيران ترفض الواقع المؤلم، والاحتلال البغيض، حجارة يرجم بها تواجد المحتل، بعد أن كان ذلك المحتلّ المغرور يبطش بالناس، ويشتم، بينما صابر وأمثاله يكتمون غيظهم في صدورهم، ولا يملكون إلا التضرّع إلى الله سبحانه، يشكون إليه ضعف قوتهم، وقلّة حيلتهم. وها قد أقبل اليوم ليقف فيه إلى جانب أخوة، أصحاب همم عالية وهامات مرفوعة وحناجر ثائرة، يعبّر علناً ودون خوف أو وجل عن أفكاره ومبادئه، ويصرخ بكلمات مجلجلة تخرق الآذان، ويطلق ويكتب شعارات يزين بها الجدران، بعد أن كان الضعف يخرسه، والخوف يعقد لسانه ويلجمه، وقد كانت أفكاره حبيسة صدره وسجينة عقله.

كان صابر يُمضي جلّ وقته وجهده في تطوير مفهوم الانتفاضة، وفعلها العظيم على الأرض، كلما سمع فزعة أو نداء طار إليها، وكان أثناء جهاده ومقاومته يشعر بيد القدر تحركه وتحفظه وتحميه، وكثيراً ما أوشك أن يقع في مطبات أو منزلقات، ثم وجد يد القدر تمتد إليه فتنجيه، كأنما تعده

لشيء قد قدر له، وعلى موعد مع القدر كان صابر، فقد جاءه صديقه أيمن متغير الوجه لاهثاً تكاد تسمع ضربات قلبه من بعيد من شدة قوتها، وقبل أن يلتقط أنفاسه بادر قائلاً:

– لقد تناهى إلى مسامعي أن جماعة ما يسمى «أمناء جبل الهيكل» تعتزم غداً دخول المسجد الأقصى وتدنيسه وإقامة صلاتهم في باحته.

– وهل سنقف مكتوفي الأيدي؟

– من قال هذا؟ بل سنشد الرحال فجراً لنكون مع أول الوافدين إلى المسجد لنحميه ونمنع الصهاينة المعتدين من تدنيسه.

– إذا موعدنا الفجر.

سرى صابر وأيمن إلى المسجد الأقصى مبكرين، تجاوزا كل الحواجز والعوائق، وتخطيا كل الصعاب والعقبات، تارة يركبان وتارة يترجلان، تارة يسلكان طريقاً عامة، وتارة يسلكان طرقاً التفافية، حتى وصلا وبشق الأنفس إلى المدينة المقدسة، وأشرفا على المسجد الأقصى.

بدت لهما القبة المشرفة بلونها الذهبي البرّاق الذي يسلب العقول، ويسحر الأبصار، فغمرتهما الفرحة، وتملكتهما السعادة، لكن الفرحة ما لبثت أن تبددت بعد أن تبينا أن أسوار المدينة موصدة، ولا سبيل لهما دخولها، حتى إذا يأسا من التفكير في أي محاولة للاختراق، وهمّا بالعودة على أعقابهما، جاءهما صبي مقدسي صغير وسألهما:

– هل تريدان الدخول إلى المسجد الأقصى؟

– ما جاء بنا إلى هنا إلا هذا الهدف، وهذه الغاية.!

– إذاً اتبعاني.

- إلى أين؟

- كي أوصلكما إلى المسجد.

سارا وراء الفتى المقدسي، يقودهما دليلاً، وهما خلفه، إلى أن وصل بهما إلى سور المدينة فتوقف أمام بوابة حديدية وضعت لتحول دون الوصول إلى درج حجري يوصل إلى أعلى سور المدينة، تسلّق الفتى البوابة، وقفز إلى الدرج، تبعه صابر وأيمن، وصعدا الدرج حتى وصلا إلى أعلى السور، ومنه قفزا إلى أسطح أبنية مجاورة، وهبطا، ليجدا نفسيهما مع دليلهما الصغير في داخل المدينة المقدسة.

قادهما ذلك الشبل المقدسي عبر أسواق المدينة القديمة، وإلى جانب بيوت ملاصقة لسور المسجد قريباً من الموضأ المعروف «بالمطهرة» وساعدهم الأهالي في التسلق إلى أسطح تلك البنايات والقفز منها إلى الموضأ «المطهرة»، ومن هناك لم يعد يحول بينهم وبين المسجد الأقصى أيّ حائل.

وهكذا وبعد جهد كبير، وتصميم عنيد، وجدا نفسيهما داخل المسجد، فتنفسا الصعداء، وحمدا الله على ذلك وقال صابر:

- لا أعرف كيف يتشدق هؤلاء الصهاينة بالحديث عن احترام حقوق الإنسان ومراعاة حرية العبادة، وهم أبعد ما يكون عن ذلك، فما من مصل يأتِ إلى المسجد الأقصى لأداء فريضة الصلاة إلا وينالـه من الأذى نصيب، إما بالضرب، أو بالاعتقال، أو بالشتم والإهانة، وإذا نجا من كلّ ذلك، فلا أقل من أن يعاني تعب الانتظار ساعات وساعات أمام الحواجز والبوابات.

يرد أيمن قائلاً:

- إنهم يفعلون ذلك عن سبق إصرار ومكر وتدبير، فهم يعلمون أن

المسجد الأقصى لن يسقط في أيديهم إلا بعد أن يسقط من قلوب المؤمنين، إما انشغالاً عنه بزخرف الحياة الدنيا ومتاعها، وإما خوفاً من تبعات عمارته، وعندما أدرك الصهاينة أن شيئاً لا يمكن أن يشغل المؤمنين عن مسجدهم، عمدوا إلى التضييق عليهم وتخويفهم وترهيبهم حتى يؤثروا السلامة، ويتركوا لهم المسجد يفعلون به ما يشاءون.

- خسئوا وخابوا، فإن قوى الأرض مجتمعة لن تحول بيننا وبين مسجدنا، مهوى قلوبنا، ومسرى رسولنا صلى الله عليه وسلم.

وبينما كان المسلمون يتوافدون إلى المسجد الأقصى زرافات وفرادى ليحموا مسجدهم بصدورهم العارية وأيديهم الفارغة، كان أبناء الظلام قد دبروا أمراً بليل، فما أن امتلأت الساحة بالمسلمين حتى فتحت عليهم النيران من كل مكان، من الأرض ومن السماء، وسقط العشرات بين جريح مضرّج بالدماء، وشهيد ارتقى إلى العلياء.

افترق الصديقان، وانشغل كل واحد بأمر، أما صابر فراح يساعد الجرحى وينقل المصابين، وبينما هو منهمك في ذلك، وقع نظره على مشهد فظيع مريع، تقشعرّ له الأبدان، وتشيب له الولدان، شيخ كهل يتكئ على عكاز، يحاول صعود درجات الصخرة المشرفة ليلوذ بها من أزيز الرصاص الذي أخذ ينهمر على رؤوس الناس كالمطر، شيخ مسنّ رسم الزمن على محيّاه أخاديد من الشقاء والحزن والألم، أشاب شعره، وحنى ظهره وأضعف بصره، وأوهن عظامه، وأثقل خطواته، وقبل أن يصل الشيخ إلى مأمن يحميه، عاجلته طائرة مروحية كانت تحوم في سماء المسجد برصاصة في رأسه، تناثرت منها عظام جمجمته، وخرّ الشيخ على بلاط درجات قبة

الصخرة.

لم يصدق صابر ما يرى، أهو مشهد من فيلم مرعب، أم هو وهم، أم تراه حقيقة؟ واقع أم خيال؟

إنه واقع وحقيقة، حقيقة الاحتلال البغيض الكريه الذي لا يرعى حرمة الإنسان، ولا قداسة المكان، يقتل، لا لشيء إلا للقتل.

أي شيء فعله هذا الشيخ المسكين حتى يقتل هذه القتلة؟

من أي طينة جبل هؤلاء؟ من طينة الغل، أم من طينة الغدر، أم من طينة الحقد؟

يقول في نفسه:

- بل من هذا كله وأكثر...

أيّ خسة، وأيّ نذالة يحملها هؤلاء الأنجاس في أرواحهم؟

وما أن عاد صابر من شروده حتى نهض مسرعاً، وراح يجمع بكلتا يديه عظام جمجمة الشيخ، وبينما هو منشغل في ذلك كان قناص صهيوني يترصّده من على سور المسجد، حتى إذا ما التفت صابر نحوه، عاجله برصاصة اخترقت صدره، فخرّ جوار ذلك الشيخ، وامتزج دمه بدمِه....

وصل الخبر طائراً إلى أمه، «ولا تعدم سوء الأخبار من يحملها» فوقع عليها كوقع الصاعقة، اسودت الدنيا في عينيها، وأظلمت، وضاقت عليها الأرض بما رحبت، وضاقت عليها نفسها، وأصابها الذهول، فانعقد لسانها ولم تنطق بكلمة واحدة، لكن وجهها كان يتكلم ويعبر عن حالها بكل لغات العالم، لو شاهدها أحد في تلك الساعة، أو طرفة عين منها، أو أقل لرأى همّ الدنيا وحزنها وشقاءها وبؤسها كله قد اجتمع في تغاضين وجهها.

هل ستفقد وحيدها، حبها، فلذة كبدها وأمل حياتها؟ هل ستفقده كما فقدت أباه من قبل؟

هل كتب عليها أن تتجرع الكأس مرات ومرات؟

كم تعبت وعانت وتحملت الأذى والمهانة من أجله، وكم سهرت عليه تتفقده وتحرسه بروحها وعينيها؟

كم ليلة باتت طاوية وهي تتظاهر بالشبع كي يأكل ويشبع ويهنأ؟

ضحت بعمرها وأفنت زهرة شبابها، لم تفرح يوماً في حياتها، لم تلتفت يوما لنفسها، كأنما خُلقت لابنها لا لذاتها، كم هو عظيم قلب الأم! وكم هنّ ماجدات نساء أمتنا! والآن بعد أن كبر وأصبح رجلا يُختطف من بين يديها..

لم تتمالك أم صابر نفسها، وسرعان ما خرّت مغشياً عليها، لكن قلبها المتصل بالله لم يفتأ يناجي ربه يدعوه ويرجوه:

- رحماك رباه، رحماك.. رحماك رباه، رحماك، وقع البلاء ولا راد له سواك.

استفاقت أم صابر على صوت البشير يقول:

- إن رحمة الله تداركت صابر، فقد تبين لهم بالمشفى أن الرصاصة التي أصابته أخطأت موضع القلب.

لقد أراد الله سبحانه، بقدرته العظيمة، أن ينقذ صابر، وأن يطمئن قلب أمّه لتخرج من دائرة الحزن التي غشيتها.

(٦)

عهد ووفاء

كانت تلك الأيام، من أصعب وأشد الأيام وطأة على صابر، فعلى الرغم من نجاته من الإصابة، وتماثله للشفاء إلا أن ما خلفته أحداث تلك المجزرة البشعة ومشاهدها المروعة من آثار في نفسه، جعلت منه شخصاً آخر غير الذي كان عليه، فقد أصبح مطيل الصمت، مقل الكلام والطعام، دائم الوجوم والشرود، منزوياً منطوياً على نفسه، وبقي على هذه الحالة أياماً عديدة، حتى جاءه صباح ذات يوم صديقاه أيمن وإبراهيم وعرضا عليه الخروج معهما في نزهة إلى الجبال، وما كان صابر ليرد عرض أعز صديقين عليه، وهو المعروف بعشقه وولعه بالطبيعة.

خرج صابر مع صديقيه وكانت رحلة ممتعة شائقة في يوم ربيعي جميل، لبست الطبيعة فيه أبهى حلة خضراء جميلة وناصعة، وقد تفتحت الورود وأزهرت وأينعت الأشجار وأثمرت، ولا يزال الشلال يتدفق بمائه الصافي الرقراق ويسيل منه إلى الوادي بقدر، ونسمات الهواء نقيّة صافية تريح النفس وتروّح عنها، إلا أن منظراً منكراً تراءى لهم أينما ولو وجوههم شرقاً أو غرباً، شمالاً أو جنوباً، كان ذلك المنظر «منظر المستوطنات التي أخذت

تمتد وتتسع بشكل مطرد كما ينتشر السرطان في الجسد»، هذا المشهد عكّر صفوهم، وأفسد خلوتهم، ونغّص فرحهم.

اختار صابر وصاحباه موقعاً لهم فوق صخرة كبيرة على سفح الجبل، تطلّ على المنطقة من جميع جوانبها، وتناولا فوقها غداءهم، وبينما أخذ أيمن وإبراهيم يتبادلان المزاح والفكاهة والنكات، أطرق صابر وبقي صامتاً، وقد لفت سلوك صابر هذا انتباه صاحبيه فسكتا عن الكلام، واستغرقا معه صامتين، لكنه كان صمت المكان المتحفّز الذي ما لبث أن أفصح عن أمور عظام كانت تضطرم في صدر صابر كما النيران.

رفع صابر رأسه، وشخص ببصره نحو صاحبيه، وقال:

- أعلم أنكما دبرتما هذه النزهة كي تخففا عني بعض ما أصابني في الأيام الأخيرة من همّ وغم، هكذا فليكن الأصدقاء وإلا فلا.. لكن ما بي أكبر مما تتصورانه، وما يخرجني منه أعظم مما تظنانه، فإن أحداث تلك المجزرة لا تزال منقوشة في رأسي، الصورة لا تفارق ناظريّ، كأنما وقعت الساعة والأصوات والصرخات ما زالت ترن في أذني، والرائحة ما زالت عالقة في أنفي، ولا يزال الدم طرياً ندياً، فكيف لي أن الهو وأزهو وأفرح وأمرح؟!

ثم إني قطعت عهداً على نفسي ولا بد لي أن أوفيه، فقد رأيت نفسي يوم أن اخترقت الرصاصة صدري، وأخذ دمي يتدفق، ويسيل، ثم يختلط بدم ذلك الشيخ الكهل، تهيأ لي لحظتها أن دمي يصافح دمه ويعانقه، ثم أخذت قواي تنهار شيئاً فشيئاً، وراح بصري يضعف، وأصبحت في حالة هي أقرب إلى الهذيان، وأحسست كأنما روحي تفارقني، وهي في ذلك راغبة، ثم قدر

اللّه الذي أمسك روح ذلك الشيخ الكهل وقبضها إليه أن يرسل روحي، لكنها عادت على غير ما كانت عليه، عادت ثائرة متمردة جامحة، ليس كما كانت هادئة وادعة.. وهي اليوم تأبى عليّ القعود أو الركون، لذا فإنني قد أخذت قراري، وعزمت أمري أن أوفي بعهدي الذي قطعته على نفسي، وصدقته يدي، فيا صاحبيّ، إما أن تمضيا معي في ما أنا عازم عليه، فيكون عهدي هو عهدكما، وثأري هو ثأركما، وإما أن أمضي فيه وحدي، أوفيه أو أهلك دونه، فانظرا في أمركما وأجيباني.

رد عليه أيمن قائلا:

– إنك تعلم أني كنت معك حيث كنت، وشهدت ما شهدت، ولقد خلفت في صدري تلك المجزرة مثلما خلفت في صدرك جرحاً لا يشفيه إلا ما قاله اللّه سبحانه وتعالى في كتابه

﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ فأنا معك في هذا الطريق، أتقدّمك ولا أخذلك.

قاطعه إبراهيم قائلاً:

– لست أقل منكما نخوة وغيرةً وحمية، ويشهد اللّه أني منذ زمن وأنا أتشوق ليوم الثأر وشفاء الصدر، فلن يكون حرّاً من يرضي المهانة ويقبل المذلة، فكيف لا نغار على ديننا ووطننا وأعراضنا؟ وكيف لا نثور عندما تسفك دماؤنا وتدنّس مقدساتنا وتمتهن كرامتنا؟

تهللت أسارير وجه صابر وقال:

– لم يخب ظني بكما، لكن عليكما أن تدركا أننا إذ نسلك هذا الطريق، فإننا نوئد كل أحلامنا وآمالنا، ونعبر إلى طريق لا يوصل إلا لأحد أمرين

«السجن أو الشهادة»، وما بينهما جراح وآلام وتعب ونصب..

قال أيمن:

- لمثل هذا ولدتنا أمهاتنا وعلى هذا فلنتعاهد.. نتعاهد أن لا نقيل ولا نستقيل حتى ننجز ما عزمنا عليه، نتعاهد على أن نكتم سرّنا ونخفيه في صدورنا، نتعاهد على أن يحمي الواحد منا ظهر أخيه ولا يسلمه ولا يخذله..

رد إبراهيم متسائلاً:

- لكن ماذا عسانا أن نفعل؟

رد صابر قائلاً:

- سنفعل ما بوسعنا، وبوسعنا أن نفعل الكثير، سنسير على درب من سبقونا، ونكون قدوة لمن سيلحق بنا، وإني على ثقة أنه سيلحق بنا خلق كثير، أترون هذه المغتصبات التي تحيط بنا من كل جانب، علينا أن نحيل حياتهم إلى جحيم لا يطاق، وأن نسلبهم الأمن والاستقرار، وأن نسقيهم من ذات الكأس التي يسقون منها شعبنا، فنجعلهم يألمون كما نألم..

ثم استطرد مفصلاً:

- نتسلل إلى مغتصباتهم ليلاً، فنتلف كل ما يمكن إتلافه، ونحرق كل ما يمكن إحراقه، سنأتيهم من حيث لا يحتسبون، كل يوم نباغت مغتصبة في ساعة مختلفة، ومن مكان مختلف، وبعمل مختلف..

علق إبراهيم ممازحاً:

- تقصد أن نصبح أبناء الليل..!

رد أيمن قائلاً:

- بل قل رجال الليل وإني اقترح أن نسمي مجموعتنا «أشباح الليل» وأن

نكتب لهم شعارات بلغتهم داخل مستوطناتهم.

مرّ شهر كامل والرفاق الثلاثة لهم في كلّ ليلة صولة وجولة، كانوا يتسللون تحت جنح الظلام، يضربون ضربتهم ثم ينسحبون، لا أحد يعرف عددهم أو مكانهم، لا أحد يعرف من أين يأتون، وإلى أين يذهبون، أصبحوا لغزاً حيّر المستوطنين، وأفقدهم أمنهم، وجعلهم يعيشون القلق والتوجس والتحسب.

ثم كان اللقاء الحاسم الذي تصدر صابر فيه الحديث قائلاً:

– لقد انجزنا المرحلة الأولى من عملنا بنجاح وذلك بفضل الله وتوفيقه، وعلينا الآن أن نخطو خطوة حاسمة هي أشد وطأة، فقد أصبناهم في أموالهم، وبعد اليوم سنصيبهم، إن شاء الله، في أنفسهم، لكن ما نحن مقدمون عليه يحتاج منا أضعاف أضعاف ما نحن عليه من شجاعة وعزيمة وإقدام، بعد اليوم لا مقام لأي خوف أو تردد، إقدام وحسب، وعزيمة وحسب، وشجاعة وحسب، ويلزمنا أن نعمل بكل دقّة، وكامل حيطة؛ لأن الخطأ الأول يمكن أن يكون الأخير، وعلينا أن نشترك في دورة لألعاب القوى في أحد النوادي والمراكز الرياضية، واسمعاني جيدا، لقد كنا قبل اليوم نهاجم في غفلة منهم، أما بعد اليوم فسنضطر إلى العمل في غفلة من عدونا ويقظته.

تدخل أيمن مستوضحاً:

– أفصح، فما نفقه كثيراً مما تقول.!

قال صابر:

– نتسلل إلى أحيائهم متنكرين بلباسهم، ونجوب تلك الأحياء نرقب كلّ صغيرة وكبيرة، وكل حركة وسكنة، فالكثير من جنودهم يأتون إلى مدننا ومخيماتنا وقرانا فيقتلون ويعتقلون من أبنائنا، يأتون من هذه المغتصبات

وإليها يعودون، وعندما تسنح لنا الفرصة المناسبة نكمن لأحدهم وننقضّ عليه نسلبه روحه وسلاحه، وهكذا نحصل على عتادنا من عدونا، ونشفي صدورنا..

إني أتوق إلى طعنة نجلاء، طعنة.. وطعنة، طعنة أوفي بها عهدي، وطعنة أشفي بها صدري، وطعنة أرضي بها ربي.

(٧)

محنة، وصابر لها

زوّار الليل

توالت الطرقات، وازدادت شدة على باب بيت صابر، حتى كادت تحطمه.

الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، والليلة ظلماء ممطرة من ليالي شهر شباط، نهضت أم صابر مذعورة فزعة على صوت الطرقات، وأسرعت نحو الباب وصوت جنود الاحتلال يخرق أذنها:

- افتح الباب.. البيت محاصر.. افتح وإلا «ابنخلع» الباب.

وقفت أم صابر أمام الباب مذهولة حائرة، مترددة، جسمها يرتعش، ويداها ترتجفان، وهي تدرك أن «زوار الليل» هؤلاء ما جاءوا يحملون لها ولولدها غير الشر.

ولم تجد، والطرقات تزداد قوّة وشدّة على الباب إلا أن تفتح الباب، وفي اللحظة التي فُتح فيها الباب، اندفع الجنود داخل المنزل كالكلاب الضالة التي تبحث عن فريسة للانقضاض عليها، وبينما أخذ الجنود يعيثون في المنزل إفساداً وإتلافاً، ويقلبون الأثاث رأساً على عقب، بحجة التفتيش، وقف ضابط الوحدة أمام أم صابر، وراح يسألها:

- مين ساكن هون؟!

- لا أحد غيري.. و....!

تابع الضابط باستهزاء:

- أنت وصابر.. أين هو؟؟

تقدم صابر برباطة جأش، وقال:

- أنا صابر، ماذا تريدون؟

- نريدك أن تأتي معنا..

انتعل صابر حذاءه، ووضع عليه رداءه، وودع أمه، وأوصاها بالصبر والثبات، وقال لها:

- ادعي لي، وما تخافيش علي..

اقتاد الجنود صابر نحو عرباتهم العسكرية بعد أن ربطوا على عينيه بعصابة كتيمة، وقيدوا يديه.

ترك خلفه أمه المحزونة دامعة العين، مكسورة القلب، مهمومة بائسة، لا يتوقف لسانها عن الدعاء:

- الله يحفظك.. الله ينجيك من بين أيديهم.. الله يرجعك سالم.. الله ينتقم منهم.

بقيت هذه الدعوات ترنّ في أذن صابر حتى توارى عن الأنظار.

(٨)

طريق الآلام

حُمل صابر في سيارة جيب عسكرية، وانطلق الموكب مسرعاً إلى المعتقل، وفي المعتقل بدأت المحنة، وبدأ الامتحان!

محنة شديدة الوطء، وامتحان إرادة، فليس المخبر كالمعاين..

استغرقت مسافة الطريق قرابة الساعة، لكنها مرت على صابر كأنها دهر، فطول الطريق كان الجنود ينهالون عليه بالركلات واللكمات، والبصاق والشتائم بأفظع الكلمات، حتى ما بقي موضع في جسده إلا وناله من الأذى نصيب.

في تلك اللحظات التي عاش فيها صابر الضعف، والعجز، والذل والهوان بأبشع صوره، ورأى كيف أن صنوف المعاناة تحاصره من كل مكان، وجد نفسه وقد انقطعت به السبل وضل من يدعوه إلا الله، يجأر إلى الله، ويلوذ بحماه، وطفق يلهج بالدعاء والتسبيح والذكر..

أخيرا توقفت سيارة الجيب وتنفس صابر الصعداء، جرّوه للنزول جرّاً، وبينما كان يتلمس طريق الخروج متعثراً، سارع الجنود إلى جره خارجاً، وراحوا يدفعون به مسرعين كأنما يسابقون الريح، فجأة صرخ به أحدهم:

- ارفع رأسك..

وما أن رفع رأسه حتى شعر بضربة قوية تهز كيانه، فقد لطم الجنود رأسه بعامود كهرباء، وأخذ الدم يتفجر من أنفه ويملأ ملابسه، كل ذلك وهو مقيد اليدين معصوب العينين..

واصل الجنود جرّه والدماء تنزف منه، وتصبغ ملابسه، وهو يردد في نفسه حسبنا الله ونعم الوكيل.. حسبنا الله ونعم الوكيل.. حتى وصلوا به مبنى إلى المعتقل، هناك نزعوا العصبة عن عينيه، وفكوا قيده، وأمروه أن يتجرد من كلّ ملابسه!!

وبعد أن قاموا بتفتيشه، أعادوا له بعض ملابس ليرتديها، وأخذوا البقية، إضافة إلى ما وجدوه بحوزته من نقود وأوراق ثبوتية، وساعة يده ورباط حذائه، وأودعوها فيما يعرف بالأمانات.

في الوقت نفسه استبدلوا عصبة العينين بكيس نتن من القماش وضع على رأسه، وأصبح رفيقه الذي لا يفارقه طوال فترة التحقيق.

حل رجال شرطة مكان الجنود، وقد تعارف المعتقلون على تسميتهم بالزبانية.. وكان أول عمل لهؤلاء الزبانية مع صابر، أن اقتادوه إلى غرفة في المعتقل، حيث قاموا بتصويره وأخذ بصمات أصابعه، ومن ثم ساروا به إلى العيادة حيث أجرى له الطبيب فحصاً أولياً، نبض، ضغط، تنفس.. ثم سأله:

- هل تعاني من شيء؟

أشار صابر إلى أنفه، وقال:

- أعاني هذا الذي تراه!

- لا.. لا أعني غير هذا..

- لا شيء..

- OK

تناولته الزبانية بعد أن أعادوا الكيس إلى رأسه، ومضوا به في ردهات المعتقل وهم يجرونه من أسفل الكيس الذي يغطي رأسه، وهذه المرة، إلى قسم التحقيق المعروف بالمسلخ.!

صابر في المسلخ

وجد صابر نفسه جالساً على كرسي ذي مقعد خشبي، مقيد القدمين، مكبل اليدين من الخلف، وكيس النتانة يغطي رأسه..

السكون الحذر يخيّم على المكان، وجسد صابر المنهك يرتجف من شدة البرد، ومن هول المجهول الذي يبدو قاتماً، الذي ينتظره، وكرد فعل طبيعي سيطر الفضول على صابر، وراح يدفعه لاستكشاف ما حوله، فقد خلقه الله مبصراً، ولم يتقبّل بعد أن تحجب عنه الرؤية.

راح يتنحنح مستكشفاً فقد يسمعه أحد ما، ويجيب، لكن الصمت بقي مطبقاً، وراح يهزّ رأسه أعلى وأسفل حتى ارتفع الكيس عن عينيه، وأصبح يبصر ما حوله، فعرف أنه في غرفة التحقيق، وأنها مسألة دقائق حتى يأتي المحقق ويبدأ التحقيق.

وراح صابر يسرح في فضاء من الأفكار، وعشرات التساؤلات تدور في رأسه:

- كيف حدث هذا.. وأين يكمن الخلل؟، ما الذي يعرفونه، وما الذي لا يعرفونه؟ كم سألاقي من عذاب في هذه المحنة؟ هل أستطيع أن أصمد؟ كيف سيكون وقع هذه المصيبة على أمي؟

وعندما خطرت هذه الفكرة برأسه، همس بحزن وحرقة:

- آه يا أمي يبدو أنني حطّمت قلبك.!

كل هذه الأسئلة وغيرها طافت برأس صابر، لكنه ما لبث أن استفاق من شروده ودفع عنه هذه الوساوس وانتفض كالملدوغ، وراح يخاطب نفسه:

– ألم تكن تدرك من قبل أن هذا الطريق محفوف بالمتاعب والمخاطر وقد اخترته راضياً طائعاً وعن سبق تصميم؟ ألم تعاهد الله على الجهاد والصبر والثبات؟

وهذا أمر البلاء قد وقع فماذا يمكن أن تفعل أو أن تتصرّف؟

يعاود التحدّث مع نفسه:

– هيا اطرد الوهن من قلبك، واستجمع كل قواك، ولا تجعلهم يشعرون أنك ضعيف، فإنك إن فعلت ذلك قهرت نفسك قبل أن يقهرك خصمك، وعندها ستكون العاقبة وخيمة، وستُهزم شر هزيمة، ولئن هُزِمت في هذه المنازلة، سيبقى الأثر في نفسك شعور بالعار يلاحقك طوال عمرك، وستخيّب رجاء أمك وإخوانك ورفاق دربك فيك، إياك.. إياك.. أن تضعف أو تنهار، وتذكّر كلّ ما تعلمته ودرسته حول التحقيق وأساليبه، ومواجهته بحزم وتصميم وقوّة.

قطع قدوم المحقق شرود صابر، واضطره إلى التوقف عن الاستطراد في أفكاره..

رفع المحقق الكيس عن رأس صابر، وسأله باستغراب عن سبب هذه الدماء التي تملأ وجهه وملابسه!!

أخبره صابر بما حدث معه، فرد المحقق:

– هل عاينك الطبيب؟

– نعم، لكنه لم يفعل شيئاً!

– المهم (شافك).. خلص!!

ثم استدعى أحد الزبانية وطلب منه أن يأخذ صابر ليغسل وجهه، وما

أن عاد حتى باشر المحقق الحديث مستهلاً بالتعريف بنفسه:

– أنا اسمي الكابتن «بشير» وأنا مسؤول عن ملف التحقيق معك، أريد منك الآن فقط أن نسجل بعض المعلومات العائلية والاجتماعية كإجراء روتيني، «اسمك الرباعي، مكان السكن، الحالة الاجتماعية، التحصيل العلمي، أسماء أفراد العائلة، الأصدقاء»

أجابه صابر عن كلّ ذلك، لكنه توقف عند موضوع الأصدقاء وقال:

– ليس لي أصدقاء محددين، فأنا أتعامل مع كل الناس المحيطين بي بصورة حسنة وأعتبرهم أصدقاء، ولا أميّز بين أحد منهم، لذلك فأنا لا يمكنني أن أعطيك أسماء محددة.

حاول المحقق بكل وسيلة أن يحصل منه على أسماء أصدقائه، لكن صابر أصر على موقفه، مما اضطر المحقق إلى تجاوز هذه المسألة، وراح يلقي على مسامع صابر محاضرة مطوّلة بأسلوب هادئ سلس، استهلها بإعادة التعريف بنفسه، وبخبرته الواسعة، وأنه رجل عقل ومنطق، يؤمن بالتفاهم والحوار، ولا يستخدم العنف والتعذيب أسلوباً كالمحققين الآخرين.. وأخذ يسرد قصصا لأشخاص وأسماء ادعى أنه حقق معهم، وكيف أنه ساعد من اختار منهم أسلوب التفاهم والعقل، وأخرجه من ورطته بأقل الخسائر ودون «بهدلة»، وأن آخرين ممن ركبوا رؤوسهم وأصروا على العناد، جلبوا لأنفسهم «وجع الرأس»، والتعذيب، وفي نهاية المطاف اعترفوا، وختم محاضرته العصماء بالتوجه إلى صابر بالقول:

– أنا أعلم أنك شاب مثقف ومتعلم، ولست متحجّر العقل، وتؤمن بالمنطق، وأنت تعلم أننا لم نعتقلك عبثاً، وإنما بناء على معلومات مؤكدة

وصلتنا عنك، وبالتالي فإن هناك ملفاً مفتوحاً وعلينا أن نتعاون كي نغلقه، أنت قمت بما قمت به، وعليك أن تتحمل المسؤولية كرجل، وتتفاهم معنا، وأنا أعدك بأن أساعدك بتخفيف الحكم عليك أقصى ما يمكن.. أنا لا أقول لك سنطلق سراحك، لا أخدعك، لكن أستطع أن أقدم توصية بأنك تعاونت معنا، والمحكمة ستراعي ذلك وتعطيك حكماً مخففاً.

سكت قليلاً ثم استطرد:

- يعني بدل خمس سنوات، سنة أو عدة أشهر، وممكن نعمل معك صفقة بعد «ما تحط اللي عندك» وتقص علينا القصة، أو أن نستبدل مدة اعتقالك بالإبعاد خارج البلاد مدة قصيرة، يمكنك أن تستغلها بإكمال تعليمك والعودة!!

ثم قال بلهجة شحنها بكثير من الهدوء والرحمة:

- أنا أعرف أنك متعب الآن، وسأتركك ترتاح وتنام، لكن قبل ذلك عليك أن تعطيني عناوين، وفي الغد نتحدث بالتفاصيل!!

لم ينطلِ هذا الكلام الذي يحمل السمّ في المظهر على صابر، فهو ومنذ البداية كان يعلم أن هذا المحقق يتقمص دور الصديق الذي ما يلبث، بعد أن يخدع المعتقل بمعسول كلامه ووعوده، أن يتبرأ منه، ويتنكر له..

﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً﴾

لذلك فإن رد صابر كان قاطعاً وحازماً:

- أنا لم أعمل شيئاً لأعترف به، ولا يوجد عندي قصة لأرويها لك.

بهذه الكلمات قطع صابر قول المحقق، الذي ما لبث أن قلب جلده وسحنته، واستدعى الزبانية وأمرهم أن يأخذوه، وفي هذه المرة ساقوه

إلى «ساحة الشبح».. وما أدراك ما «ساحة الشبح».!

هي قطعة من جهنم حطّت على الأرض، كأنها مراح عذاب، فيها تمتهن كرامة الإنسان، وُيجرّد من آدميته، ويعاملونه كأنه حيوان لا ينتمي إلى الجنس البشري، لو أتيحت لأي كان فرصة المشاهدة، سيرى مآسي أكبر من قدرة احتمال أي إنسان، في تلك الساحة، «معذبون معلقون» كأنهم قطع من لحم نيء، منهم من هو معلّق من يديه، لا يستند جسده إلا على رؤوس أصابع قدميه، ومنهم محنيّ الظهر، مقيد اليدين من الخلف، معلق بهما يستند أيضاً على أصابع قدميه، وأما الذين تنكّست رؤوسهم، فهم المعلقون من أقدامهم، وأما القاعدين، إما على كرسي صغير قصير الأرجل، مربوطة أياديهم من الخلف بظهر الكرسي، أو على «بلاطة» هي قطعة من الباطون يبلغ سمكها بضع سنتيمترات، يجلس عليها «المعذبون» بينما تُربط أيديهم من الخلف، وتوصل بحلقة حديدية مثبتة في الجدار، أما الأقدام فهي في قيد حديدي مثبت في الأرض، ويبقى «المشبوح» على هذا النحو، محنيّ الظهر، حتى إذا ما حاول رفع رأسه أو ظهره بادره أحد الزبانية بركلة قوية، وشتيمة أشد منها قوة !!

وإذا أراد «الجلادون» أن يتواصوا به، يضاعفوا عليه العذاب فوق عذابه، يسحبوا «البلاطة» من تحته فيهبط إلى الأرض وتبقى يداه معلقتان، فتجتمع عليه، مع ألم الظهر، ألم تمزّق الكتفين.

أما صابر فكان حظه أن عُلّق من وراء ظهره بحلقة في الجدار، ربطت يداه بها، وبقي مرتكزاً على أصابع قدميه ساعات طوال، راح خلالها، وقد اشتد به الألم، وأعياه التعب، يناجي ربه بأبيات يحفظها:

يا من يناجى بالضمير فيسمع ... أنت المعد لكل ما يتوقع
يا من يناجى للشدائد كلها ... يا من إليه المشتكى والمفزع
يا من خزائن جوده في قول كن ... أمنن فإن الفضل عندك أجمع
مالي سوى قرعي لبابك حيلة ... فإذا رددت فأيّ باب أقرع
ومن الذي أدعو وأهتف باسمه ... إن كان برك عن فقيرك يمنع
حاشى لجودك أن يقنّط راجياً ... الفضل أجزل والمواهب أوسع

وما أن ينتهي من التغني بهذه الأبيات، حتى يعود وينشدها من جديد، وهكذا، حتى قطع عليه مسار تأمّلاته صوت صبي صغير، امتزجت نبراته باللوعة والألم، يصرخ، يبكي، ويستجدي.. بينما يتلذذ الزبانية بتعذيبه، ويهزؤون منه، ويتضاحكون ويسخرون..

هذا الصبي في الرابعة عشرة من عمره، وقد اتهم بحرق سيارة مستوطن يهودي، وقد وضعه «الجلادون» في مكان يطلق عليه «القبر» أو «الخزانة».. وهو مكان ضيق، غالباً ما تكون أرضيته طافحة بالمخلّفات الآدمية، ويظل المحتجز فيه واقفاً على قدميه وهو مقيد اليدين والرجلين، وسط ظلمة دامسة، ورائحة منتنة..!!

لم يتمكن هذا الصبي الصغير من تحمل هذه الظروف القاسية، فانفجر بالبكاء والصراخ، لكن قلوب هؤلاء قدّت من حجر، ونزعت منها الرحمة والإنسانية، ولم يبق فيها فسحة لإيواء طفل صغير.

كان لهذا الموقف بالغ الأثر في نفس صابر، فقد زاد من سخطه وحنقه على المحتلين الغاصبين، وعزز عنده إرادة الصمود والثبات والتحدي.

بدأ النعاس والألم يتناوشانه، يغالبه النعاس حيناً والألم حيناً، فما يكاد يطبق عليه النعاس، وتغفل أجفانه، ويرتخي جسده، حتى يعود الألم والقيد يشدّه، ويوقظه من جديد، وهكذا يصبح «المعذب المعلق» في حالة بين النوم واليقظة، لا هو في هذه ولا هو في تلك، حتى يصل به الحال إلى حدّ الهذيان.

وبطبيعة الحال لا يسمح للمعتقل أداء الصلاة بصورة عادية، كان صابر يضطر إلى التيمم عند كل وجبة طعام، ثم يقدّر للصلاة وقتها، ويصلي وهو يرسف بالأغلال.

وكثيراً ما كان يعيد الصلاة مرات ومرات، فعلى الرغم من أنه كان يستجمع كل قواه، ويصفي ذهنه، إلا أن التعب والإرهاق كان يغالبه ويفقده التركيز، فلا يدري، هل أنهى صلاته أم بدأها، أم هو ما يزال في وسطها!!

بعد فترة من السكون، بدأت الحركة تدبّ في المكان، وأصبح صابر يسمع أصوات السجانين و«طرطقة» المفاتيح والقيود، أبوابٌ تفتح وأخرى تغلق، وهذه الحركة تعلن عن قدوم يوم جديد، تأتي «الزبانية» في كلّ صباح لفك «المعذبين» وأخذهم واحداً تلو الآخر إلى دورة المياه لقضاء حاجاتهم، وتناول وجبة الفطور!!

يدفعون بالمعتقل داخل دورة المياه بعد أن يفكّوا القيد من يديه، ويبقوا قيد قدميه، ويلقون إليه بكيس الطعام، ويمهلونه خمس دقائق للأكل وقضاء الحاجة!!

أما وجبة الفطور فهي عبارة عن بيضة مسلوقة، وثلاثة قطع شرحات خبز، تطلى اثنتان منها بما يقل عن نصف ملعقة من اللبنة.

جاء دور صابر، وكان جسده متعطشاً لهذه الدقائق المعدودة، بعد أن نال

التعب والإجهاد منه كل منال، أما الطعام فقد أنفته نفسه ولم يفلح في حملها على تقبّله، وآثر أن يقضي يومه طاوياً، مكتفياً بشربة ماء، وهذا حال كلّ معتقل جديد، تأنف نفسه الطعام بادئ الأمر لرداءته، ونتانة المكان الذي يجبر على تناوله فيه، لكن ما أن يمرّ عليه يوم أو يومان، ويشتد به الجوع، حتى يقبل على الطعام بنهم، ويلتهم ما كان بالأمس يأنفه.

استُدعي صابر صباحاً من ساحة الشبح إلى مكاتب التحقيق، وهناك وجد بانتظاره محققاً جديداً يدعى «أبو يوسف»، جلس صابر على الكرسي بعد أن رفع الغطاء عن رأسه، بينما راح المحقق يعبث بأوراق أمامه، ويتفحص جهاز الحاسوب، وكأنه يريد أن يوحي أنه يتجاهله، ولا يكترث به، لكن صابر لم يلق لذلك بالا، بل وجد فيه راحة له، وبعد دقائق التفت المحقق نحو صابر وراح يخاطبه:

- إيش.. كيف الشبح؟ مش هيك بدك..أصمد يا بطل! لسه هذي البداية.. وما خفي أعظم!

ثم أردف:

- يا بني آدم قلنا لك من الأول، اختصر على نفسك «البهدلة»، وتعال نقعد نتفاهم بالعقل، شو رأيك؟ بدك تقعد تتفاهم، واللا بدك كمان بهدله؟! وأنا بقول لك لسه انت ما شفتش إشي، إذا بدك تركب راسك راح توكل.. ومش رح نرحمك..

يرد صابر بهدوء وثقة:

- أنا بدي «التفاهم» بس أنا ما اعملتش اشي حتى أحكيلكم عنه..

- ايش بعني إحنا بنتبلا عليك؟

- أكيد في خطأ..

- جهاز المخابرات ما بيغلطش، وانت بالمليح أو بالعاطل حتعترف.

واستدرك بنبرة صوت قاسية:

- قوم وقف جنب الحائط على رؤوس أصابعك، واثني ركبتيك، وعد للألف!!

كان صابر قبل اعتقاله قد اطلع على بعض الكراسات الأمنية، وقرأ فيها أن على المعتقل في مثل هذه الحالة أن يرفض طلب المحقق بشكل قاطع، حتى لو حاول تنفيذه بالقوة، فالمحقق يهدف من وراء ذلك إذلال المعتقل، وكسر كبريائه، ومسح شخصيته، وتحويله إلى شخص مطيع منفذ للأوامر، وجعله يعذّب نفسه بنفسه، بينما يجلس المحقق مرتاحاً على كرسيّه، يأمر وينهى «ارفع ظهرك.. انزل كمان.. لا ترتكز على الحائط.. أعد العد من جديد..» فلا بد من الرفض، وسيتحمل المعتقل بعض الأذى ثم ينتهي الأمر، وهذا ما فعله صابر، رفض تنفيذ ما طلبه منه المحقق، وبقي واقفاً متكئاً على الحائط، فقام إليه المحقق واستعان بآخر، وحاولا تثبيته على الهيئة التي يريدانها، وما أن يرفعا أيديهما عنه حتى يعود ليقف من جديد، واستمر الحال على هذا النحو حوالي نصف ساعة، تعب فيها المحققان ولم يجدا غير صرف النظر عن ذلك.

من مكتب التحقيق سيق صابر إلى «القبر» حيث مكث فيه ساعات طوال، لا يخرج منه إلا لتناول وجبات الطعام، وبعد وقت طال على صابر ولم يستطع أن يحصيه، جاء السجان ونقله إلى زنزانة ضيقة، فكّ القيد من يديه، ورفع الكيس عن رأسه، ودفعه إلى داخل الزنزانة هو يردّد:

- ادخل نام..

وجد صابر داخل هذه الزنزانة فرشة وبطانية وزجاجتين، واحدة ماء للشرب، والأخرى للبول!

ألقى صابر جسده المنهك على الفرشة المنتنة، والتحف البطانية العفنة، ولم يشعر إلا بصوت السجان يفتح عليه الباب ويلقي له بالكيس ويقول له:

- ضعه على رأسك وتعال..

لم يعط صابر سوى ساعتين للنوم قبل أن يعود السجان ويأخذه ليكمل ليلته على «بلاطة الشبح»..

وفي الصباح استدعي صابر مجدداً للتحقيق معه وقد فاجأه المحقق بالقول:

- هل تعلم أن صاحبك «إبراهيم» هو الآخر معتقل عندنا؟ وهل تعلم أنه اعترف بكل شيء.. ليس لأنه ضعيف، بل لأنه شاب عاقل، علم أن الأمور منتهية ومكشوفة لنا، فوفّر على نفسه التعب والعذاب، وجلس وتفاهم معنا.. وإذا أردت، أحضرناه لمواجهتك، ليقول أمامك أنه اعترف بكل شيء.. ما رأيك؟

وبعد صمت قصير تابع:

- لكن قبل ذلك عليك أن تعدنا أن بعد أن نحضره، تجلس معنا وتنهي الموضوع، نسجّل كل ما عندك ونقارنه بالمعلومات التي عندنا وباعتراف «إبراهيم» واعترافات الآخرين، فإن وجدناك صادقاً، أنهينا التحقيق معك «وسكرنا الملف»، وأرسلناك مباشرة إلى السجن، حتى تنهي مدة اعتقالك، وطبعاً سنقدم توصية للمحكمة حتى يتم تخفيف الحكم عليك.

وبنبرة قاسية تابع:

- أما إذا وجدنا أنك تخفي شيئا فسيكون حسابك عندنا عسيراً.

صدم صابر من هذا الأمر، وبدت آثار القلق تبدو على تفاصيل وجهه، لكنه ما لبث أن تمالك نفسه وأظهر تماسكه، وراح يفكر بطريقة يخرج نفسه من هذا المأزق الذي وُضع فيه، فهو إن رد بالموافقة على المواجهة، فكأنما يقرّ بأنه متورط في أشياء يخفيها، وسيلاحقونه حتى يفضي بها، حتى ولو تبين لاحقا كذب ادعائهم باعتراف «إبراهيم».. وإذا رد بالرفض، فسيتهمونه بالخوف من المواجهة، والتهرب من الحقيقة..

فكان رده ذكياً:

- أنا لم أعمل شيئاً لأعترف به، وإن شئتم فأحضروه لأكذبه أمامكم، وأثبت لكم صدقي وكذبه..

- ولماذا يكذب عليك؟ أليس صديقك!!

- أنا لا أعلم لماذا، كل ما أعرفه أنني بريء مما تتهموني به..

وبعد أن يئس المحققون من إقناعه أو اخضاعه، ردوه إلى «مربطه» في ساحة الشبح، وتواصوا بأن تسحب «البلاطة» من تحته..

أخذ صابر يفكر فيما قاله المحققون ويقلّبه في رأسه:

- هل يمكن أن يكون «إبراهيم» فعلاً قد اعترف؟ وإذا كان كذلك فبماذا اعترف، وبماذا لم يعترف؟ ربما يكذبون، والأمر كله لا يتعدى مكيدة للإيقاع بي.! «إن رحمة الله قريب من المحسنين».

طال على صابر الأمد وهو يكابد من فظاعة «الشبح» على هذه الهيئة المتعبة، وبدأت آثار التعب والإرهاق تظهر عليه، وازداد الألم في ظهره،

واشتد، وأصبح يشعر بكلتا يديه تنفصلان عن جسده، والكيس اللعين يشعره بالغثيان، ويطبق عليه حتى يكاد يخنقه..

لكن ماذا عساه يفعل؟

وسيستجير بمن، ويستصرخ نخوة من؟

هل من هؤلاء الزبانية الجلادين.!

إنهم لن يزيدوه إلا رهقا، وما أمر ذلك الطفل عنه ببعيد..

وهنا وجد صابر نفسه دون أن يشعر، يردد قوله تعالى: ﴿**أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ**﴾..

أقبل بكل جوارحه يدعو ربه بتجرد وإخلاص وانكسار:

- رب مسني الضرّ وأنت أرحم الراحمين، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، رب اكشف عني هذا السوء، ونجني مما يمكرون..

فما كاد ينهي دعواته حتى جاءته الاستجابة.

جاء السجان، فكّ قيده، وصحبه برفق «على غير العادة» إلى غرفة التحقيق، وهناك وجد محققاً جديدا لم يره من قبل، رفع الكيس عن رأسه، وفك القيد من يديه ثم أحضر له كأساً من الشاي الساخن، وبدأ يتحدث معه بهدوء، ويناقشه في أمور سياسية عامة، وقد استمر ذلك أكثر من ساعتين ارتاح فيهما جسد صابر، وبدأت الحياة تدبّ في أوصاله من جديد..

ختم المحقق حديثه «الناعم» بدعوة «خجولة » لصابر أن يتعاون معهم، فيصبح صديقاً ويطوي ملفه، وتفتح أمامه الأبواب ومجالات الحياة الكريمة.!

وفي المقابل فالمطلوب منه أشياء بسيطة لن تعرّضه للخطر، ولن يكشف

أحد أمره..

في هذه الأثناء كان صابر يحلق بفكره في عالم آخر، عالم الله الذي استجاب دعاءه وفرّج كربته، فهل يكون شكره بالخيانة العظمى لله والدين والوطن..؟

قطع صابر على المحقق الاسترسال في ترهاته قائلاً:

- لا تتعب نفسك في هذا الأمر، فلست أنا من يرضى الخيانة، ويبيع نفسه وشرفه ولو بكنوز الدنيا، ولئن أصلب فتأكل الطير من رأسي، أحبُّ إليّ مما تدعوني إليه..

ابتسم المحقق ابتسامة صفراء، وربّت على كتف صابر، واستدعى السجّان وطلب منه أن يعيده إلى مكانه.

عاد صابر، ولكن بعزيمة وإصرار وتصميم على الصمود والثبات، وشعور بالقرب من الله، وبنفحات إيمانية تفيض عليه، ولذّة ونشوة تملأ قلبه، وتشحذ همته، وتنسيه آلامه وأحزانه.

(٩)

وتشتدّ المحنة

لقد بدا لهم من بعد ما خبروا صلابته وثباته، وعناده، وفشل كل الوسائل التي استخدموها ضدّه، سواء بالترغيب أو الترهيب، قرروا أن يخضعوه لجولات مركزة من التعذيب، فتكالب عليه «الجلادون» أياما طوالاً، وراحوا يذيقونه العذاب أشكالاً وألوانا، ومما كانوا يبرعون في استخدامه كوسيلة من وسائل التعذيب الجسدي، كانوا يضعون القيود الحديدية في منتصف ساعديه، ويداه مربوطتان خلف ظهره، ثم يضغطونها بكل ما أوتوا من قوة، فتنغرز في لحمه حتى تكاد تصل إلى عظامه، وعندما تنحبس الدماء في عروقه، تنتفخ، فيبدأ الجلادون بالتلاعب بأصابعه، والضغط عليها والمباعدة بينها..

وإذا أراد أحد أن يدرك حجم الألم الذي يشعر به «المعذب» في هذه اللحظات فحسبه أن يتصور ألم رضّة إصبع يد، أو رجل نتيجة لوقوع جسم ثقيل عليه، كيف عندما تنحبس الدماء في هذا الإصبع؟

وكيف إذا قبض أحد ما على ذلك الإصبع بقوة، أو داس عليه؟ أيّ ألم صاعق يمكن أن يتحمّله أي إنسان، ولا يمكن أن يقدّر حجم الألم إلا من

تعرّض لمثله..

لم يكن الضغط على اليدين إلا واحدة من أساليب عدة استخدمها الجلادون مع صابر، من بينها:

أسلوب كسر الظهر كانوا يجلسونه على كرسي التعذيب، حيث يكون جنبه باتجاه ظهر الكرسي كي لا يستند إليه، ثم يقيّدون يديه من الخلف، ويوصلونها بقيد قدميه، فيبقى ظهره مائلا للخلف ساعات طوال، وكلّ ثقل جسمه مرتكز على فقرات أسفل الظهر، وكلما اشتد به التعب والوصب، تهاوى بجسمه إلى الأرض، فيقوم الجلادون بضربه على معدته وشدّه من تلابيبه، وإعادته إلى الوضع الذي كان عليه، وهذا الأسلوب يعرف بأسلوب كسر الظهر..

أما أسلوب «**خلع اليدين**» فحدث ولا حرج، يجلسونه على كرسي صغير مثبت إلى جوار طاولة المكتب، ويرفعون يديه من خلف ظهره على الطاولة، وبينما يقوم أحد «الجلادين» بتثبيته جالساً مستقيم الظهر، رافع الرأس، يقوم أخر بسحب يديه بقوة نحو نهاية الطاولة، لتشكل يداه مع ظهره زاوية قائمة.

وكلما حاول «المشبوح» أن يخفض رأسه أو يحني ظهره، شدّه أحد الزبانية من شعره إلى الأعلى وهو يقول بسخرية وإمعاناً بالاستهزاء والإذلال:

- لماذا تخفض رأسك؟ هل أنت نادم وخجول بما فعلت؟! ارفع رأسك، وافتخر بعملك الوطني.. هههههه!

القيد يدمي معصميه، والألم أشدّ من أن يوصف، والجسد منهك، لكن الروح المتصلة بالله ما زالت في تحلّق في العلياء.

ومن المضحك المبكي، أنه ذات مرة شعر صابر أن يديه لم تعودا خلف ظهره، وحسب أنها عادت مكانها إلى جنبيه، فراح يلفّ رأسه بكل قوة، حتى يتأكد من ذلك، وعندما غالب الجلاد الذي يثبت رأسه، واستطاع أن يلتفت، نظر فلم يجد يداه.! أدرك أنهما ما زالتا خلف ظهره، لكن التعب والإرهاق أفقده دقة الشعور، واختلطت عليه الأمور..!!

وأما **أسلوب الخنق**، فكثيراً ما استخدمه الجلادون معه، حيث كان أحد الجلادين يضع لاصقاً على أصابع يده، ويقوم بالضغط بشدة بإصبعي الإبهام على منطقة أسفل الذقن، وأعلى الرقبة، ولا يتوقف حتى توشك روح صابر أن تفارقه!!

ومن أشد الأساليب خطورة، والذي استخدمه المحققون مرارا وتكرارا مع صابر.

أسلوب الهز وقد سبق لأحد المجاهدين أن استشهد نتيجة ذلك، وتكمن الخطورة في خضّ رأس المعتقل بقوة وسرعة كبيرة، وحدث عما يمكن أن ينجم عن ذلك من تداعيات...

وهكذا، جولات وجولات، كل جولة بأسلوب جديد، ولا تتوقف بين ذلك كله الصفعات والركلات واللكمات والسباب والشتائم.

(١٠)

الدمعة الغالية

اعتاد «الجلادون» بعد جولات التعذيب أن يُجلسوا صابر على كرسي الشبِح الصغير في ممر ضيق بين المكاتب، وكلما مر به أحد الزبانية أو الجلادين ركله أو شتمه، وصابر يحتمل هذا الأذى ويحتسبه عند الله، حتى تجاوز الأمر كلّ حد، وتمادى أحدهم عليه بما لا يتصوره عقل، فقد اقترب منه ذلك «النذل» وألصق مؤخرته برأسه المغطى بالكيس، ثم قام «بإخراج الريح».!

عندها، تمنى صابر لو أن الأرض تنشقّ وتبتلعه، فكل نبضة في قلبه كانت تصرخ وتقول:

- ليتني متّ قبل هذا وكنت نسياً منسياً..

هل يعقل أن تصل درجة الحقد عند مخلوق آدمي إلى حدّ الاستهتار بآدمية الإنسان؟

أيّ حقد يحمله هؤلاء الأوغاد في عقولهم وقلوبهم وضمائرهم؟

أيّ خسة وأي نذالة؟

لا شك في أن هذا من نكد الدنيا على الحر، فكم هو ثقيل على نفس

الحر أن يعيش القهر، ويتجرع كأسه المرّ، أن يشعر بالعجز، وفقدان المقدرة، وأن كل أسوار الأرض تحاصره، وكل قيودها تكبله، وكأن كلّ شياطين الأرض تتداعى عليه ولا ناصر له غير الله.

أقبل صابر على ربه يناجيه:

- اللهم إنك تعلم ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، أنت رب المستضعفين وربي، إلى من تكلني، إلى عدو يتجهمني، أم إلى بعيد ملّكته أمري؟!

تسللت دمعة حارّة من عين صابر، بكى قلبه قبل أن تدمع عينه، وتأوه من كبد مفطورة:

- أواه.. لو أن لي بكم قوة، أو تفك قيودي دقائق، فأري هؤلاء الأنذال أيّ الرجال هم، تالله لأنزعن من بين أضلعهم تلك القلوب النتنة، ولأسحقن رؤوسهم العفنة، وليكن بعدها ما يكون، فلا نامت أعين الجبناء.

قدرة الله تتجلى

أمضى صابر أياماً على هذا الحال، حتى نحل جسمه وشحب وجهه، وأعياه التعب والإرهاق، وجاءت الليلة الليلاء.. ليلة تكالب الجلادون فيها، واتفقوا على أن يسوموه فيها أشد العذاب..

أحضروه مع دخول الليل بعد أن استعدوا للسهر، والتفنن في صنوف التعذيب، في محاولة مستميتة، لكسر إرادته، وتحطيم صموده.

أجلسوه على كرسي التعذيب، ثلاثة جلادين، بينهم المسؤول الأول عن «المسلخ»، يتجوّل في المسلخ جيئة وذهاباً، يتفقد باقي المعذبين، لأن القوانين تمنع استخدام بعض أساليب التحقيق إلا بحضوره لشدة خطورتها.

اقترب من صابر أحد المحققين، رفع الكيس عن رأسه ولطمه لطمة قوية على وجهه، وراح يتوعده ويهدده، ثم اقترب جلاد آخر يتمايل غروراً وعنجهية واستعلاءً، وباشر كلا الجلادَين بتعذيبه، أجلساه بطريقة «كسر الظهر»، وكان قد أضناه التعب والإرهاق، ونال الألم منه كل منال، ولم يعد يقدر على تحمل المزيد، فأقبل على الله راجيا غوثه، تمتم بكلمات راسية في صدره، ومن قلبه المشبع بالألم والرجاء:

- اللهم اكفنيهم بما شئت، يا غياث المستغيثين أغثني.

وما كاد ينتهي من ترديدها مرة بعد مرّة، حتى راح المحققان كلاهما وفي الوقت نفسه، يسعلان في نوبات متلاحقة أدمعت عيونهما، واحمر وجهاهما، وبدت عليهما آثار التعب والإعياء، ولم يجدا من بد سوى تركه، وكانا قبل لحظة فقط يتهددان ويتوعدان، وهما بكامل قوتهما، ما كان بهما سوء، يقولان من منطلق غرورهما وصلفهما:

- من أشد منا قوة..

فأتاهم الله من حيث لم يحتسبا، وردهم بغيظهم لم ينالوا خيراً.

أمضى المحققان الليل بطوله وهما يحاولان التخلص مما أصابهما، ليكملا مهمتهما، تناولا المشروبات الساخنة، والحبوب المسكنة، ولكن دون جدوى، حتى أوشك أن يطلع عليهما الصباح، فأعادا صابر إلى الزنزانة، وكان هذا أخر مشهد من مشاهد التعذيب الجسدي الذي تعرض له صابر في هذا المعتقل.

(١١)

المصيدة

استدعى صابر بعد يومين إلى مكاتب التحقيق، وهناك التقى بالمحقق «أبو يوسف» الذي عاد ليسأل:

- هل تريد أن تعترف أم لا..؟

- لقد سبق وقلت لكم أنه لا يوجد عندي ما أعترف به.

- وماذا عن اعترافات أصحابك، والمعلومات التي لدينا؟

ثم استدرك:

- على كل حال ليس لدينا وقت نضيعه معك، إن تمتنع عن الاعتراف فهذا شأنك، «نحن» نملك أدلة كافية لإدانتك، وسنقدمها للمحكمة لتحاكم بناء عليها، وسيكون حكمك أكبر لأنك لم تعترف..!!

قال ذلك وهمّ بالوقوف:

- بكل الأحوال نحن أنهينا عملنا معك، وسننقلك قريباً إلى السجن.

عاد صابر إلى زنزانته تتجاذبه مشاعر متضاربة، فهو من ناحية سعيد لانتهاء التحقيق معه، ورفع التعذيب عنه، وهذا يعني أنه تجاوز هذه المرحلة بسلام، ومن ناحية ثانية ينتابه شعور بالتوجس والخوف من المجهول، ومما

تخفيه له الأيام، فالأيام كما يقولون «حبلى بالمفاجآت».

وبينما هو جالس صامتاً، يقلّب الأمور في رأسه، سمع «طرطقة المفاتيح»، سرعان ما فتح الباب، وظهر السجّان الغليظ، ومعه شاب معتقل جديد، دفع به إلى الداخل، وأغلق الباب، وقفل راجعاً.

الشاب الملتحي، وتبدو عليه آثار التعذيب والإرهاق، بدأ بطرح السلام بنبرة هادئة، فرد صابر عليه السلام ورحب به وأجلسه قربه، وقد انفرجت أسارير صابر عندما شاهد هذا الشاب، فهو أول شخص يلتقي به منذ اعتقاله، وهو متشوق إلى من يشاركه، ويخرجه من شعور الوحدة ويؤنسه في معاناته وسجنه.

تعارفا بسرعة، الشاب الوافد الجديد اسمه «سالم»، أخذا يتبادلان أطراف الحديث بحذر وتوجس، دون أن يسأل أحدهما الآخر حول أمر اعتقاله.

ذكر «سالم» فيما ذكر، أنه سبق واعتقل عدة مرات، ودخل السجن، وأمضى فيه سنين طويلة من عمره، وهذا ما دفع صابر ليخبره بما أبلغه به المحقق «أبو يوسف» من انتهاء التحقيق معه وأنه سينقل قريبا إلى السجن، فراح «سالم» يصف السجن لصابر ويشرح له عن الوضع داخله والأنظمة والقوانين المتبعة فيه، ثم استأذن لينام ويريح جسده قليلاً، فهو يعرف أن أمامه، في الغد، يوما ثقيلا..

جاء السجان في الصباح وأخذ «سالم»، ودّعه صابر قائلاً:

- الله معك.. شد حيلك.

بعد لحظات عاد السجان برفقة رجال «البوسطة»، أخرجوا صابر من

الزنزانة بعد أن تحققوا من اسمه، واقتادوه إلى «البوسطة» التي سارت به زهاء الساعة قبل أن تحط الرحال داخل أسوار قلعة عظيمة محصنة بأسوار شاهقة، وأسلاك مكهربة شائكة، ونقاط مراقبة، وكلاب مدربة، هذه القلعة الحصينة المدجّجة هي «السجن»..

دخل صابر السجن، حيث أعادوا له ساعة يده، ورباط حذائه، ودخل معه إلى السجن شاب آخر اسمه «صالح» كان برفقة السجان الذي اصطحبهما وأوصلهما باب الغرفة التي تقرر أن ينزلا فيها..

دخلا الغرفة فوجدا فيها جمعا من المعتقلين بين قائم ونائم، كانوا أربعة عشر شخصاً من أعمار متفاوتة، تقدم «شاويش الغرفة» ورحب بهما، ودعا النزلاء إلى «جلسة تعارف».. استهلها بالترحيب بالقادمين الجديدين، وطلب أن يعرف كل باسمه ومكان سكنه، ثم أخذ يشرح لهما نظام السجن والقوانين التي يجب الالتزام لها، وأنه يحظر عليهما التحدث بما قاما به خارج السجن مع أيّ من النزلاء، وأن للسجن «مخوّل أمني» سيأتي ليتعرف عليهما، ويتحدث معهما، وبعد أن ختم «الشاويش» حديثه، طلب تقديم الشاي والبسكويت على شرف الأخوين الجديدين..

انفضّت الجلسة، وعاد كلّ واحد إلى مكانه، وبقي صابر وصالح مع «الشاويش» الذي قام بدوره بإعطاء كل واحد منهما ملابس داخلية، كي يستحما ويذهبا عنهما وعثاء السفر وأدران زنازين التحقيق.

شعر صابر بالراحة والدفء في هذا المكان، فكل شيء في الغرفة كان يجلب للنفس الراحة والاطمئنان النظافة، الانضباط، النظام، والأكل الحسن، الجلسات الثقافية والسياسية، القيلولة وساعة الهدوء، صلاة

الجماعة وقراءة القرآن، وقيام الليل.

كل الأمور تسير تماما كما أخبره بها «سالم» ذلك السجين القديم الذي التقاه في الزنزانة.

أمضى صابر يومه الأول في هذه الغرفة دون أن يعكر صفوه شيء سوى انشغاله وقلقه على أمه، التي لم يدر ما حل بها منذ اعتقاله.

وفي صبيحة اليوم التالي، وبينما كان صابر واقفا بين يدي الله ساجداً وقائماً، دخل «المخول الأمني» فوقف له جميع من في الغرفة ورحبوا به، فطلب أن يفرغوا له زاوية حتى يتسنى له أن ينفرد فيها بالأخ الجديد «صالح» ريثما ينهي صابر صلاته، فيجلس معه بعد ذلك..

وكان له ما طلب، وانفرد بصالح ودار بينهما حديث طويل، كان صابر أثناء ذلك قد أنهى صلاته وجلس بانتظار أن يأتي دوره، وبعد طول انتظار خرج «المخول الأمني» منفرج الأسارير، صافح صابر ودخل معه إلى الزاوية، بينما صالح يسأل عن دفتر وقلم ليسجل ما اتفق عليه مع «المخول الأمني».!

وقد أثار ذلك التصرّف الريبة والتوجس في نفس «صابر» وقد جلس يستمع «للمخول الأمني» وهو يعرف عن نفسه وقصة اعتقاله، وذكر أنه كان ثائرا وطنيا، يحمل بندقية، ويخفيها في مكان حصين لم يطلع عليه أحداً سوى صديقه الحميم، مودع سره، يثق به أكثر من ثقته بنفسه، وشاءت الأقدار أن يتعرّض ذلك الصديق للاعتقال، ويعترف، من شدة التعذيب، ويدلّ على مكان البندقية، وعندما ذهب «الراوي» لإخراجها كان جنود الاحتلال يكمنون له، فانقضوا عليه، واعتقلوه.

كل هذا جرى بسبب تقصير الأسرى، الذين لم يبلغوه عن اعتراف

صديقه..

وبعد أن انتهى من سرد هذه القصة، التفت إلى صابر، وقال:

- نحن الآن، وتداركاً لمثل هذه الأخطاء، اتخذنا إجراءات أمنية مشددة، وقمنا بتشكيل لجان متخصصة، وتعيين «مخوّل أمني» يلتقي بالقادمين الجدد، ويتعرف على قضاياهم، حيث ينبغي على كل قادم جديد أن يذكر له: تاريخه النضالي، ومجريات التحقيق معه، وهذا هو مطلوب منك أن تحدثني عنه.

صمت صابر برهة، فقد تذكر مباشرة «القاعدة الذهبية» التي سبق أن قرأها في إحدى الكراسات الأمنية «كل من يسألك عما لم تعترف به فهو عميل»، «لا تخبر أحداً كائناً من كان بما لم تعترف به حتى ولو كان «الشيخ المجاهد» أو «الأخ القائد..»

لكن في مقابل ذلك فإن فيما يطرحه هذا الرجل شيء من المنطق.

احتار صابر قليلاً في الأمر، نفسه تزيّن له الإفضاء بما عنده، وهذه حالة طبيعية في كل نفس بشرية، فبعد الانعزال التام عن الناس مدة طويلة، وبعد الصمود والثبات وحسن البلاء في التحقيق، يصبح المعتقل متعطشاً للحديث والكلام، وما أن يجد شخصاً يأنس إليه حتى يفضي له بكل ما في جعبته، كأنما يريد أن يقول:

- ها أنا ذا قد صمدت وتحديت وانتصرت..

ولا يسلم من هذا الداء، إلا قلّة قليلة من الناس..

لكن عقل صابر كان يحذره ويقول له:

- ماذا لو كان هذا الرجل عميلاً أو حتى ثرثاراً، ما الذي سيحل بك

بعدها؟

وهنا حزم صابر أمره وخرج عن صمته، وقال:

– إنني أخجل من أن أجلس أمام مناضل مثلك، وأنا أبحث في ماضيّ فلا أجد فيه موقفاً وطنياً واحداً أتشرف به، فأنا وحيد أمي، وهي تخاف عليّ حتى من نسمة الهواء، وأنا لا أريد أن أكسر قلبها مخافة أن تفجع بي كما فجعت بأبي من قبل، لذا فقد آثرت رضاها، وقعدت في بيتي، وأغلقت عليّ بابي.

أما مجريات التحقيق، فسأقصها عليك، ما دمت ترغب بالاستماع، بكل تفاصيلها من الألف إلى الياء.

لم يرق هذا القول «للمخول الأمني»، الذي بدا متجهماً، ورد بعصبية وانفعال:

– نحن بإمكاننا أن نعرف كل صغيرة وكبيرة عنك، وسنراسل منطقتك ليبعثوا لنا تقريراً كاملاً يشمل كل تاريخ حياتك، وإن وجدنا أنك تخفي عنا شيئا فسيكون لنا معك شأن آخر.

– تأكد تماماً أنك لن تجد إلا ما أخبرتك به.

توقف الحوار بينهما عد ذلك الحد، وخرجا من الزاوية، وقد بدأ «المخول الأمني» جمع نزلاء الغرفة، وأعلن على مسامعهم:

– إن الأخ صالح قد حدد انتماءه التنظيمي، وهو منذ اليوم واحد منا، مرحبٌ به بيننا..

صفق له الجميع وراحوا يتقدمون منه واحداً بعد الآخر مرحبين.

تابع المخوّل:

– أما الأخ «صابر» فلم يحدد التنظيم الذي ينتمي إليه بعد.. نأمل أن يقوم بذلك قريباً بعد أن يعيش بيننا، ويتعرف جيداً علينا، وتطمئن نفسه إلينا.

وما إن أنهى كلامه، استأذن من الجميع، واستدعى السجان الذي فتح له الباب، وخرج.

في ظهيرة اليوم التالي، جاء السجان وطلب من القادمين الجديدين أن يأتيا معه لاستلام مخصصهما، من صحون، وبطانيات.

خرج صابر ورفيقه، فوجدا نفسيهما يساقان كلّ إلى زنزانة منفردة..

أما صابر فادخل إلى زنزانة رقم «٧»، حيث وجد فيها خمسة سجناء، وكانت من الضيق بحيث لا تتسع لأكثر من اثنين، فيها دلو للشرب، وآخر لقضاء الحاجة، جدرانها ذات لون رمادي يميل إلى السواد، تنبعث منها رائحة نتنة، يشعر المرء داخلها بانقباض صدره، وضيق في تنفسه، وثقل في رأسه.

رحب به نزلاء الزنزانة، وفسحوا له مكانا «ليقنبز» فيه، ثم سألوه عن اسمه، ومن أيّ مكان أتى، فأخبرهم أنه كان في الغرف، وجاء السجان وأخرجه ليأخذ مخصصه، وفجأة جاء به إلى هنا، فراحوا يتضاحكون، قال أحدهم مازحاً:

– لقد كنت في غرفة العار «العصافير»، وكلنا كنا هناك قبلك، وحدث معنا ما حدث معك.

ثم تابع بحسرة:

– والله أنا «أكلتها»، شهر كامل من التعذيب والضرب، ولم أعترف،

وجئت في نهاية الأمر واعترفت عند هؤلاء بكل شيء، وحتى بأشياء لم أكن أفكر بها أو أمارسها.

وأردف:

- بس إن شاء الله ما «تكونش» إنت كمان وقعت عندهم..؟

- لا.. الحمد لله، كنت على وشك أن أقول لهم كل شيء، ولكن في أخر لحظة تراجعت، بعد أن ارتبت بهم، ولم أقل شيئاً.

- الحمد لله..

شعر صابر أنه قد تسرّع بالقول حتى أمام هذا الشخص، وما كان ينبغي أن ينفتح لهذا الحد ما دام حتى الآن في السجن، وقال في نفسه:

- «الله يستر»..

أمضى صابر ثلاثة أيام في تلك الزنزانة الضيقة، كانوا يتناوبون فيها النوم، ينام ثلاثة منهم على جنوبهم في أوضاع متضادة، بحيث يوازي رأس أحدهم قدما الآخر.

في تلك الزنزانة الضيقة النتنة، حيث لا يستطيع الواحد حتى أن يمد رجليه، أو يقضي حاجته، راح صابر يتذكر أيامه الخوالي، ومنزله في المخيم، فعلى الرغم مما كان يعانيه من شظف العيش والفاقة والحرمان، إلا أنه، في هذه اللحظات، بات يحنّ إلى تلك الأيام، ويتمنى لو أنها تعود، ويكفيه ما كان يجد فيها من دفء المسكن، واللقمة الهنية، وحنان الأم وعطفها، وفوق ذلك كله، طعم الحرية الذي لا يقدّره حق قدره إلا من فقده، وعاش الأسر وتجرع القهر.

في صبيحة اليوم الثالث جاء «رجال البوسطة» وأعادوا صابر إلى مركز

التحقيق، حيث كان بانتظاره المحقق «بشير» الذي استقبله مبتسماً وهو يقول:

- لا يقع غير الشاطر.!

- ماذا تعني؟

سأل صابر بفزع، فأجابه المحقق:

- أين كنت؟

- في السجن..

-في السجن.! عند من؟

- مع السجناء طبعاً..

- إذاً دعني أسمِعك شيئاً.

ضغط المحقق على زر آلة تسجيل كانت على المكتب، ووقعت المفاجأة عندما سمع صابر صوته يتحدث ويقول:

- لا.. الحمد لله، كنت على وشك أن أقول لهم كل شيء، ولكن في آخر لحظة تراجعت، بعد أن ارتبت بهم، ولم أقل شيئاً.

- إيش رأيك..؟؟

تغير لون وجه صابر، وكاد أن ينهار لكنه تمالك نفسه، وقال:

- هذه مجرد كلمات قلتها لهم حتى أوهمهم أنني مناضل فيحترمونني، وترتفع مكانتي عندهم، أما حقيقة الأمر فهي غير ذلك، ثم إنني أكتشف أنني كنت عند «العصافير» ولو كان عندي شيء لذكرته لهم.

- إذاً فأنت ما زلت على عنادك.!

وأمر بأخذه إلى الزنزانة، وهناك راح صابر يعضّ أصابعه ندماً على تسرّعه، ساعة لا ينفع الندم، وراح يتحدث إلى نفسه:

- يا الله.. لقد تحملت صنوف الأذى والتعذيب والإهانة، وصمدت وصبرت، وفي نهاية المطاف تخونني الحكمة، وينفلت لساني من عقاله ويوقعني في المهالك.!

أدرك صابر أبعاد المكيدة التي حيكت، وحبكت فصولها بدقة، فقد بدأت المسرحية منذ اللحظة التي أخبره فيها المحقق بانتهاء التحقيق معه، وأنهم سينقلونه إلى السجن..

وذلك الشخص الذي يدّعي أن اسمه «سالم» وهو دون شك، عميل كان دوره تسهيل الإيقاع بصابر عندما يطابق وصفه للسجن وقوانين السجناء ما يجده أمامه في غرفة «العار».

أما الذين كانوا في زنزانة رقم «٧» فكان دورهم تكميلي، للإيقاع بمن استعصى على «المخول الأمني»، وعلم صابر لاحقا، أن تسجيل صوته كان من خلال جهاز تسجيل دقيق مزروع في ساعة أحدهم.

وبعد أيام معدودات أمضاها صابر في زنازين التحقيق، صدر قرار عسكري بتحويله إلى الاعتقال الإداري، ونقل إلى معتقل «النقب الصحراوي»، واستمر تجديد أمر اعتقاله أربع مرات، وأفرج عنه بعد عامين كاملين من الاعتقال.

(١٢)

في زمن أوسلو

خرج صابر من المعتقل، يشخص ببصره نحو السماء كأنما يراها لأول مرة !..

ثم زفر زفرة قوية من أعماقه أخرج فيها كل ما اعتمل في صدره طيلة أيام الأسر، وأخذ يستنشق عبير الحرية بنشوة ونهم وهو يتمتم:

- الله.. ما أجمل الحرية، وما أبشع السجن!

ما أبشع أن تقيّد حركتك، ويحدد لك طعامك وشرابك، ولباسك ورفاقك، ونومك وصحوك، وتصادر إرادتك، وتحبس فكرتك، يحتقرك الجهال، ويتطاول عليك الأنذال !..

ما أجمل أن تنطلق في الفضاء الرحب، حيث لا قيود ولا حدود، ليس بينك وبين السماء حجاب، تصعد الجبال وتنزل الوهاد، تمشي الهوينى، تقفز أو تركض، تأكل ما تشاء متى تشاء، تنام متى تشاء، وأين تشاء، تختار بنفسك ملابسك وأصدقاءك، ترتاد المساجد، وتمشي في الأسواق.

راح صابر وهو في الطريق من السجن إلى البيت يتفحص بنظره معالم الوطن، الجبال والسهول والوهاد، الشوارع والأبنية، ليرى ما اعتراها من

تغيير في فترة غيابه، خاصة بعد توقيع اتفاقية اوسلو، وانسحاب قوات الاحتلال من معظم المناطق في الضفة والقطاع، فقد خيل له أنه سيرى انحسار الاستيطان، وانتشار العمران، واستتباب الهدوء، وسيادة القانون، وحلول الأمن والأمان..

إلا أن أحلامه وآماله راحت تتبدد شيئاً فشيئاً كلما اقترب أكثر فأكثر من المخيم.

شاهد الوطن لا يزال تحت سطوة الحصار، مقطع الأوصال، مكتظّاً بالمستوطنات التي تمتد وتتسع وتلتهم المزيد من الأراضي، وتُحكم خناقها حول المدن والقرى وتفصل بينها.

حتى إذا شارف على الوصول إلى بيته، هاله أن حاجزاً لجنود الاحتلال لا يزال منتصباً على بعد أمتار قليلة عن مدخل المخيم.

ولا يزال المخيم هو المخيم بأزقته وشوارعه الضيقة، وبيوته المتداعية المتلاصقة، وأطفاله الحفاة نصف العراة، ما زالوا يتجمعون طوابير ليملؤوا صحونهم بما تجود به عليهم وكالة الغوث من طعام، كل هذا عزز قناعة صابر السابقة المعارضة لهذه الاتفاقية، فهو يرى أنها تعطي المحتل أكثر مما تأخذ منه، والأدهى والأمر، والأنكى والأخطر، أن ما تعطيه للمحتل لا يمكن بأي حال استرداده أو العودة عنه، فإذا كان أصحاب الحق يتنازلون عن حقهم ويفرطون فيه، فمن ذا الذي سيهتم بحقوقهم، أو يطالب بها؟

أما ما يعطينا إياه المحتل، فلا أسهل من أن يعود متى شاء ويأخذه، إذ لا قوة تمنعه، ولا أخلاق تردعه.

فهل هناك من هو أكثر حمقاً ممن يبيع النقد بالوعد لمن لا ذمة له ولا

عهد.! تالله إنها لبصيرة عمياء، تولى كبرها حفنة من السفهاء.

إن هذه الاتفاقية في نظر صابر «ابن اللاجئين» كانت ولا تزال جريمة كبرى وخيانة عظمى، لكنه مع هذا، يدرك أنه لا يملك من الأمر شيئاً سوى أن يبرأ إلى الله مما فعله هؤلاء، ويعتذر إليه من قلة حيلته والشرفاء.

واصل صابر سيره، يحثّ الخطى حتى وصل بيته، وما أن وقعت عيناه على أمه واقفة تنتظره، حتى طار إليها يعانقها ويقبّل رأسها، والتقط كلتا يديها وطفق يشبعهما تقبيلاً ولثماً، وهي ترتجف بين يديه وتردد:

- الله يرضى عليك.. الله يرضى عليك..

والدموع تنهمر من عينيها، يستشعرها صابر وهي تلامس رأسه وملابسه كأنما خرجت من قلب أمه لا من عينيها، فهي دموع دافئة دفء حضنها، رقيقة رقّة قلبها، صافية صفاء ودها،

ثم أخذ بيد أمه وأجلسها وجلس بجوارها، وراح يسألها عن أحوالها وصحتها، وكيف تدبرت أمورها خلال فترة غيابه.

تنهدت بحرقة، ثم قالت:

- يا ولدي، لقد أقفرت الدار من بعدك، وسكنتها الهموم، وعشعشت فيها الأحزان، وكنت سجينتها، وما طاب لي من بعد أن رحلت عني حتى عدت شراب أو طعام، وما ارتاح لي جنب في المنام، وإن كنت أنت قد وجدت في سجنك من يواسيك ويشاركك همك، ويخفف عنك مرور الأيام، فقد كانت أيامي قاسية ثقيلة، وليالي مملة طويلة، ما طرق علي الباب أحد من بعدك، اللهم إلا بعض رفاقك الذين جاءوا مرات معدودة يسألون عنك،

ويبعثون لك السلام، رضي الله عنهم، وأحسن إليهم، كانوا يأتونني بالقليل من الزاد، ولولا ذلك القليل، ما استطعت أن أتدبر أمري، فلقد هرمت كما ترى، وضعف بصري، وخارت قواي، ولم تعد بي قوة على الحياكة.

ابتلع صابر ريقه وقال:

- يا أمي حفظك الله وأمد في عمرك وقواك، وها أنا ذا قد منّ الله عليّ وخرجت من السجن، ولن أدعك بعد اليوم تحتاجين شيئاً.

قطعت وفود المهنئين على صابر خلوته بأمه، فقام يستقبلهم بحفاوة وترحاب، وكان الشيخ حسن إمام المسجد من أول المهنئين، والحاج محمد جابر أبرز وجهاء المخيم، والمختار أبو خليل، وأبو فهمي، وأخذ الجميع يتبادلون الحديث، وقد بادر الشيخ حسن يسأل صابر:

- أخبرنا يا صابر كيف هي أحوال إخواننا الأسرى في سجون الاحتلال؟

- تركتهم يعانون قسوة السجن، وظلم السجان، والقهر والمذلة، والاضطهاد والحرمان، لكنهم صابرون صامدون، لم يفتّ أذى السجانين في عضدهم، ولم يكسر إرادتهم، غير أنهم عاتبون، بل ساخطون على الذين القوا «بملف الأسرى» وراء ظهورهم، ونسوهم في سجون الاحتلال، عندما صافحوا يد سجانيهم ووقعوا معهم الاتفاقيات والعهود.

يتدخل الحاج محمد جابر معلقاً:

- لست أدري أيّ سلام هذا الذي يتحدثون عنه بينما يبقى أبناؤنا وخيرة شبابنا قابعين في سجون الاحتلال؟

عقب الشيخ حسن قائلاً:

- إن كل ما بنيَ على باطل فهو باطل، وهذه الاتفاقيات من أساسها

مجحفة ظالمة، لا تعطي شعبنا سوى الفتات، بينما يبتلع العدو في ظلها الأرض وينعم بالأمان.

وهنا ضج «أبو فهمي» المعروف بتأييده «لعملية السلام» وقال:

- لا تنسوا يا جماعة أن هذه الاتفاقية «إلي مش عاجبتكم» قد أعادت القيادة الفلسطينية إلى الداخل، وحررت مئات الأسرى، وأخرجت جنود الاحتلال من مراكز المدن، وأصبحت لنا سلطة وطنية، وهذه خطوة على طريق التحرير الكامل وقيام الدولة المستقلة.

رد الحاج محمد جابر:

- الله يحيينا ويورينا..

ولما شعر المختار «أبو خليل» باحتدام النقاش سارع بتغيير مجرى الحديث قائلاً:

- سيبونا من السياسة، خلو السياسة لأهلها، احنا اجينا انهني صابر، ونطمئن عليه، إن شاء الله «كفارة» يا عمي يا صابر، «وهلقيت» دير بالك على حالك وعلى أمك، وسيبك من السياسة إلي ما بتجيب إلا وجع الراس..

وانفض المجلس، بينما توالت وفود المهنئين تأتي وتروح، وكان فرح صابر بهم كبيرا، أتم عليه فرحته الكبرى بحريته وجمع شمله بأمه، إذ لا طعم لسعادة إن لم تجد من يشاركك فيها فرحتك، ثم شيئاً فشيئاً خفتت مشاعر التأثر والبهجة في نفس صابر، وانقطعت وفود المهنئين، ونظر أمامه وخلفه، يمينه وشماله، فلم يجد غير الفقر يحاصره، عما كان منه إلا أن جمع ما أمكنه من مستندات وأوراق ثبوتية، وتوجه بها على وزارة الشؤون الاجتماعية للمطالبة بصرف مستحقاته المالية..

استقبله الموظفون بادئ الأمر بحرارة واحترام، وأصغوا إليه واستلموا أوراقه، ثم سأله أحدهم:

- إلى أي تنظيم تنتمي؟

- كنت معتقلاً إدارياً، ولا انتمي لأي تنظيم.

- مع أيّ تنظيم كنت في السجن؟

- «حماس»

تغيرت ملامح وجه الموظف، وقال:

- أليس عند حماس أموال كافية كي تساعدك؟ على كل حال اترك عنوانك عندنا، وسندرس حالتك ونعرضها على المسؤولين، وإذا قرروا صرف أيّ مستحقات لك فسنتصل بك.

ثم أردف:

- لا داعي لأن تراجعنا!

خرج صابر من مبنى الوزارة وهو يستشيط غضباً، بعد خيبة الأمل التي أصابته، وأخذ يمشي وهو يكلم نفسه:

- حتى مستحقات الأسرى والشهداء يخضعونها «للواسطة» والاعتبارات «التنظيمية»؟!.. لن أتنازل عن حقي مهما كلف الأمر، وسأظل أطالب به حتى أحصل عليه..

وراح صابر يطرق كل باب بحثاً عن وظيفة أو عمل محترم دون جدوى، حتى حفيت قدماه دون طائل، وكان أول الأبواب التي أغلقت في وجهه باب الوظيفة الحكومية لكثرة أصحاب طلبات التوظيف، والنظرة الحزبية والفئوية الضيقة المقيتة التي يغطونها بغطاء «السلامة الأمنية»..

هام على وجهه، يتفكر في أمره، وما آل إليه حاله، بعد أن سدّت أمامه كلّ المنافذ، وضاقت عليه الدنيا، وأحكمت حلقاتها، حتى بعد أن تخلى عن حلمه بإتمام دراسته الجامعية، يجد نفسه عاجزاً عن توفير متطلبات الحياة الكريمة المتواضعة له ولأمه.

أذّن مـؤذّن للصلاة، فوجد قدميه تقودانه إلى المسجد، أدى صلاة الجماعة، وبقي «مسمّراً» في مكانه، يستغفر ربه ويدعوه أن يفرج كربه ويرزقه من حيث لا يحتسب، وبينما هو جالس، اقترب منه شاب وهو يبتسم، وربت على كتفه، التفت إليه صابر، وما أن رآه حتى انتفض قائما يعانقه وقد انفرجت أساريره، وأخذا يرحبان أحدهما بالآخر بحرارة ، وهما يتهامسان، قال صابر وهو يصافحه:

- والله زمان عنك يا عماد..

- سمعت أنك كنت معتقلاً وخرجت حديثاً من السجن، حمدا لله على سلامتك.

- سلّمك الله.. وأنت ما هي أخبارك؟

- أنا يا سيدي تخرجت من الجامعة وأعمل الآن في شركة لبيع وصيانة أجهزة الحاسوب.

- ما شاء الله! وهل تزوجت؟

- خاطب.. وسأتزوج قريبا إن شاء الله.

- أهي الفتاة ذاتها من الجامعة؟

- أجل.

- مبارك.. مبارك.

- ولكن قل لي، هل ستعود إلى الجامعة لإتمام دراستك؟

- أيّ جامعة؟! صاحبك «مفلّس»، أبحث عن عمل كي أوفر لقمة العيش لي ولوالدتي، وعندما يتحسن وضعي المالي سأفكر في أمر الجامعة.

- ألم تجد عملاً بعد؟

- لقد تعبت كثيراً وأنا أبحث عن فرصة عمل، دون جدوى.

- اترك الأمر لي، وموعدنا هنا غداً في الوقت نفسه، وإن شاء الله آتيك بخبر يسرّك.

جاء صابر حسب الموعد في اليوم التالي متلكئا قلقاً، وأقبل عماد مبشّراً:

- اعتباراً من الغد ستعمل معي إن شاء الله في الشركة نفسها التي أعمل فيها، فقد امتدحت فطنتك وأمانتك لصاحب الشركة، ووافق على أن تعمل عنده، وهو رجل ذو دين وخلق، وستسرّ بمعرفته.

- الحمد لله.. إن هذا الخبر يحتاج مني إلى سجدة شكر.

وخرّ ساجداً ثم قام وقال:

- الحمد لله، «غمة وانزاحت».

- يبدو أنك كنت بأمس الحاجة للعمل أليس كذلك؟

- بل أكثر مما تتصور، ولن أنسى لك هذا الصنيع ما حييت يا عماد، فليس أسوأ على الرجل من أن يعجز عن توفير الحد الأدنى مما يحتاج أهل بيته.

(١٣)

زوار الليل يعودون

- كيف يمكن أن يحدث هذا؟ ألم يرحلوا عنا؟ ما الذي جاء بهم؟ بل يمكن أن لا يكونوا هم؟ لا.. إنها الطرقات ذاتها ما زالت ترن في أذنيّ منذ أربع سنوات.

سمع صابر طرقات قويّة على باب بيته، وبدأت الهواجس تتلبّسه، وراح يحدث نفسه:

- يا الله إنها ذات الليلة من شهر شباط، وتكاد تكون الساعة ذاتها!

انتفضت أم صابر فزعة من فراشها، وهي تتمتم:

-اللهم أكفنا شرهم.

نهضت وقلبها يخفق بسرعة، وقدماها ترتعدان، والخوف يثقل خطواتها، ويشدها للخلف وهي تتقدم لفتح الباب..

فتحت الباب، فاندفع رجال شرطة مقنعين داخل المنزل، وهم يصرخون:

- أين صابر؟

- من أنتم؟

– نحن من «جهاز الأمـن»، ومعنا أمـر بالقبض على صابر وتفتيش المنزل.

– ولماذا؟

– لا نعلم.. نحن ننفذ الأوامر فقط.

في هذه الأثناء كانوا قد أمسكوا بصابر وأخذوا يقلبون أثاث المنزل رأساً على عقب.

لم تصدق أم صابر ما تراه عيناها، فانفجرت تصرخ في وجوههم:

– اخرجوا من بيتي أيها الأوغاد، أليس عندكم شرف ومروءة؟ حسبنا الله ونعم الوكيل فيكم، حسبنا الله ونعم الوكيل.

ثم أردفت:

– قلنا اخلصنا من اليهود اطلعتم أسوأ منهم.

أما صابر فلم ينبس ببنت شفة، ولم يتمكن حتى من توديع أمه، خرج به المقنعون مسرعين حتى تواروا في الظلام.

وكانوا قد قيدوا يديه، وعصبوا عينيه، وألقوا به في إحدى عرباتهم، واتجهوا به نحو مدينة أريحا، حتى إذا وصلوا مشارف المدينة، استوقفهم حاجز جيش الاحتلال، وسمع صابر ضباطاً فلسطينيين يخبرون الإسرائيليين «بالعبرية» أنهم يقلون معتقلاً لسجن أريحا.

فقال لهم الإسرائيليون وهم يضحكون ويتغامزون:

– تواصوا به.

ورد عليه الفلسطينيون مبتسمين:

– بالتأكيد، سنفعل فلا تشغلوا بالكم.

- بالتوفيق.. يا أصدقاءنا.

- إلى اللقاء.

كتم صابر غيظه، وتمتم في نفسه:

- حسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..

أيّ زمن هذا الذي انقلبت فيه الموازين، فأصبح العدو صديقاً، والأخ عدوّاً؟

واصل الموكب سيره إلى أن حطّ رحاله في سجن أريحا، وهناك ألقيَ بصابر في إحدى زنازين السجن الضيقة النتنة، تماما كتلك التي خبِرَها في سجون الاحتلال.

وشاءت الأقدار أن يكون أحد المحققين معه، شاب عرفه صابر في سجون الاحتلال وتقاسم معه القيد، قيد اليدين والرجلين، وسارا جنباً إلى جنب، يداً بيد، ورجلاً برجل، سارا طريقاً طويلاً، ذهاباً وإياباً إلى المحكمة، وكانا ينسقان خطواتهما كي لا تتعثر قدم أحدهما، فتتبعها قدم الآخر الأخرى..

كانا في ذلك الوقت والموقف يشعر أحدهما بألم الأخر، ويشفق عليه.

ظن صابر أن ذلك القيد الذي جمع بين قلبيهما يوم أن جمع بين يديهما ورجليهما، لا بد وأن يرقق قلب من غدا اليوم محققاً، ويجعله يحسن إليه ويدرأ عنه السوء والأذية، لكنه فوجئ به ينظر إليه بعينين شرستين، وجه أعبس، ثم قال:

- أظن أنك تذكرني جيدا؟

- وكيف لي أن أنسى، ألا يقولون «عمر الأسى ما ابينتسى».!

– إذا.. لا داعي «للفّ والدوران» والمراوغة، وأسلوب المسكنة، فهذه الأساليب لا تنطلي علينا، وأنت مكشوف لي مثل كفّ يدي، فوفّر على نفسك «البهدلة»، ولا تدفعنا لأن نستخدم معك طرقاً تعرفها جيداً و«خلينا انحل المشكلة بالتفاهم».

أسرها صابر في نفسه، قال:

– حتى أنت يا.. بئس أخو القيد أنت، أخزاك الله من وغد نذل.

– ماذا قلت؟

– قلت حسبنا الله ونعم الوكيل، أنا لا أدري ما الذي تريدونه مني؟

– إذا كنت لا تدري فسنجعلك تدري.!

وأمر به أن يعلّق من يديه في ساحة الشبح، وبدأ مسلسل العذاب يتجدد، لكنه في هذه المرة بأيدي «أخوة السلاح» واللغة والدم.

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند، كانوا يجبرونه أن يركض حافيَ القدمين في ممرّ دائري مفروش بحصى صغيرة مدببة الأطراف، وكلما تثاقلت خطواته كانت سياطهم كفيلة بإسراعها، ثم يجلسونه بعد ذلك على كرسي، يثبتوا قدميه، «ويرفعونها فلكة»، وبعد «الفلكة» يجبرونه على تغطيس رجليه في حوض ماء مالح، قبل أن يعيدوه إلى الشَبحِ من جديد..

وعلى هذا الحال، وما شاكله من ألوان العذاب، أمضى صابر أياماً ثقيلة صعبة..

ومما زاد من شدة وطأتها على نفسه، أنه يعذب دونما ذنب اقترفه، على يد أناس ما كان لهم أن يصلوا إلى ما وصلوا إليه لولا جهاده ونضاله

هو وثلّة المخلصين من أبناء هذا الشعب.

عرف صابر تهمته بعد أسبوعين من اعتقاله، وكانت جريمته أنه استضاف أحد المجاهدين المطلوبين لسلطات الاحتلال ليلةً في منزله..

بعد شهر من الاعتقال سمح «السجانون» لأمه العجوز بزيارته، فجاءت تلهث وتترنّح، من التعب، ومن ثقل ما تحمله على رأسها وبين يديها، وما أن وصلت غرفة الزيارة حتى ألقت بحملها، وأقبلت تعانق ولدها وتقبّله وهي تتمتم بصوت مخنوق حزين يحمل في نبراته لوعة المشتاق وحنين المحب:

– يا حبيبي يا ابني، يا حبيبي يا صابر، إن شاء الله أنت بخير، إن شاء الله لم يؤذوك؟

– اطمئني يا أمي، أنا بخير، كما ترين، والحمد لله، اجلسي وارتاحي.

جلست أم صابر على كرسي في الغرفة، وجلس صابر قبالتها، وقلبها ما زال يدقّ متسارعاً بصوت مرتفع، ثم التفتت إلى صابر وهمست في أذنه:

– ماذا يريدون منك؟

– لا شيء، يتهمونني بإيواء مطلوب لقوات الاحتلال ليلة في بيتنا، طبعاً أنت تعلمين أن هذا الكلام غير صحيح؟

– طبعاً، ومن يتّهمك هذه التهمة الباطلة، «أخزق» عينه بإصبعي!

– دعينا من ذلك يا أمي، وأخبريني ما كل هذا الذي جئت تحملينه؟

– بعض الملابس والحلوى، والأكلة التي تحبها.

– ورق عنب ودجاج.. أليس كذلك؟

– بلى..

– سلمت يداك يا أحلى أم في الدنيا، ولكن كيف سمحوا لك بزيارتي، ودون شبك، وأن تحضري كل هذه الأغراض معك؟

– ذهبت لجارنا «أبو فهمي» ورجوته أن يتوسط لي كي أتمكن من زيارتك، وجزاه الله خيراً، فعل كلّ ما بوسعه حتى أنه أوصلني بسيارته إلى باب السجن، وحمّلني لك السلام.

– على رسول الله السلام.

– توكّل على الله يا بني، واصبر، وإن شاء الله «ربك بفرجها»، وباب السجن ما بسكر على حد.

ابتسم «صابر» وقال:

– ستجدينني إن شاء الله من الصابرين يا أمي، قولي لي بالله عليك، لم اسميتني صابر؟

– إنه والدك «رحمه الله»، هو من اختار لك هذا الاسم قبل أن تولد، وكأنه كان يدرك أن زمانكم سيكون زمن الصبر، زمان يكثر فيه الشقاء والبلاء.

– لكل امرئ من اسمه نصيب، وقد نلت من اسمي نصيب الأسد.

انتهت الزيارة، ودّع صابر أمه، وعاد إلى زنزانته، وعادت أمه إلى بيتها على أمل لقاء جديد..

مضت الأيام تتلوها أيام، وصابر قابع في سجنه دون أن يُقدم لأي محكمة، ودون أن توجه له، بصورة رسمية، أي تهمة.!

حتى إذا دخلت العشر الأواخر من رمضان، أيام العتق من النار، وكانت الليلة الأولى منها ليلة الاثنين، شدّ صابر فيها المئزر وأحياها قائماً

وساجداً، ثم أخلد إلى النوم آخر الليل بعد أن أثقله النعاس، رأى فيما يرى النائم، أن أمه تمسح على رأسه ولحيته وتقول له:

– ألم يحن الوقت كي ترجع إلينا يا صابر؟ فإنا والله مشتاقون إليك، ونحنّ إلى لقائك.

قص صابر رؤياه على «أخوة السجن»، فبشّره من يعبر الرؤيا منهم بفرج قريب.

وبينما هو يحمل بعض ملابسه لغسلها ظهراً، ناداه مناد، أن أبشر بالفرج يا صابر، فألقى ما في يده وخرّ ساجداً.

ودع إخوانه والدموع تترقرق في عينيه حزناً على فراق إخوانه، وتركِهم خلفه في ذاك القبر، وفرحةً بانعتاقه، وخروجه من الأسر.

استقل سيارة أجرة، سافر فيها إلى المخيم، وعلى طوال الطريق يفكر كيف ستستقبل أمه الخبر، والفرحة التي ستغمرها عندما تراه، وكيف سيقص عليها رؤياه؟

وعندما شارف على الوصول، فوجئ وهو يشاهد والدته تقف بمدخل المخيم، تلتفت يمنة ويسرة كأنها تنتظر أحداً.

أوقف صابر السيارة، وترجل نحوها، وقبل أن يعانقها، سألها:

– مادا تفعلين هنا يا أمي؟

– جئت أنتظرك.

– وهل كنت تعلمين أني خارج اليوم من السجن؟

– أجل.

– ومن الذي أخبرك؟

- أنت!

- أنا؟!.. متى وكيف؟؟

- لقد جئتني الليلة في المنام وقلت لي إني عائد إليك اليوم يا أماه فانتظريني.

ضحك صابر حتى بدت نواجذه، وضمّ إليه أمّه وهو يقول:

- يا الله.. ما أعظم قدرك.. يا الله.. ما أرحمك.

(١٤)

عود على بدء

أرخى الليل سدوله، نامت عيون، وسهرت عيون، وبقيت أم صابر يقظة لم يغمض لها جفن، وهي تراقب ولدها عن كثب وقد امتشق سلاحه، وحمل متاعه، وراح يجوب المنزل ذهاباً وإياباً، يتفحصه بنظراته كأنما يودّع كل ركن فيه، ويحفظه في ذاكرته.

لم تطق أمه طويل صبر، فقامت إليه متثاقلة الخطى، وهمست بصوت حزين مخنوق:

- هل عزمت أمرك يا ولدي؟

- أجل أماه، وإنه ليعز علي فراقك، لكنني لست بالذي يرضى الدنيّة، ويقبل الخنوع والمذلّة، ويجلس في بيته مع الأطفال والنساء، ويتخلّف عن نداء الواجب، اعذريني أماه، فما أنا بقادر على ذلك، ولا أطيقه!!

- لا عليك يا ولدي، فما أرضى لك ما تكرهه لنفسك، أما وإنك لي كلّ دنياي، وإنك والله لأحب إليّ من نفسي، أما وقد عزمت أمرك واخترت طريقك، فلا والله لن أمنعك عن مبتغاك، ولن أحول بينك وبين غايتك، فامض على بركة الله، لكن اعلم يا ولدي أنك مقدم على أمر عظيم، فيه

حياتك أو موتك، فتأهب، وخذ للأمر عدّته، وإياك أن تترك نفسك لقمة سائغة لأعدائك، فإن كانت ولا بد ميتةً فلتكن بحقها.

وأوصيك بنيّ، احذر من نفسك قبل خصمك، ومن صديقك قبل عدوك، فإنما يؤت الحذر من مأمنه.

صمتت لحظات، ونظرت في عينيّ ابنها وقالت:

- بحقي عليك يا ولدي، إن كتب الله لك الشهادة أن تشفع لي وتسأل الله أن يجمعني بك وبأبيك في الجنّة.

أخذت الدموع تترقرق ويلمع بريقها في عينيّ صابر، ووجد نفسه يندفع نحو أمه ويضمّها ويقبل رأسها وهو يقول:

- كم أنا فخور بك يا أمّاه...

فك ذراعيه من حولها، وتمتم:

- استودعك الله الذي لا تضيع ودائعه.

وانطلق متخفّيا يتسحب بين الأزقة والبيوت، حتى لحق بخلايا المقاومين المرابطين على مداخل المخيم، وهم من أحزاب مختلفة وفصائل متعددة، جمعهم حب الوطن، والثأر للكرامة والشهداء، وقد كانوا بالأمس القريب متنافرين متناحرين فرقتهم السياسة، فعادت دماء الشهداء تجمعهم من جديد، تناسوا أحقادهم وخلافاتهم، وتجمعوا على قلب رجل واحد في مشهد قل نظيره تجلت فيه الوحدة والأخوّة والحماسة والشجاعة وكل المشاعر النبيلة.

كان المقاومون يدركون أنها مسالة وقت حتى يقتحم المحتلون المخيم ويستعيدوا احتلاله، كما يفعلون بمناطق أخرى، لذا فإنهم تداعوا لحماية

مخيمهم والدفاع عنه، وراحوا يقيمون المتاريس والسواتر، ويحفرون الخنادق والأنفاق، وينصبون الكمائن، ويزرعون الألغام، وهبّ جلّ سكان المخيم يساندون المقاومين، الأطفال والنساء والشيوخ والرجال، كلّ يساهم بما يقدر عليه.

اقترح صابر عليهم تظليل أزقة المخيم حتى لا تتمكن طائرات العدو من رصد تحركاتهم، واستعد المقاومون للمواجهة الكبرى، بسلاح مشروع، وعزيمة وإصرار، وثبات ورباطة جأش.

توزّعوا بينهم السلاح والذخيرة، وتفرّقوا على محاور المواجهة، وقد برز دور صابر في هذه المعركة، فقد كان دائب الحركة، لا يكلّ ولا يملّ، يساعد هذا ويساند ذاك، بهمة وحماسة ونشاط، بينما بقيت كلمات أمه ووصيتها منقوشة في رأسه، مما دفعه إلى أن يتساءل في نفسه:

- أيعقل أن لا يكون بين هذه الجموع من ينقل للعدو خططنا وتحركاتنا؟ وإذا كان، كيف لنا أن نعرفه؟ إن لم نتمكن من كشفه، فلا أقل من أن نحتاط منه..

قام من فوره وطاف بقادة المجموعات وأوصاهم ورجالهم العمل بسريّة وكتمان، وأن لا يفصحوا عن خططهم، وتحركاتهم لأحد كائنا من كان، وأن يكون شعارهم «المعرفة على قدر الحاجة»..

لفت انتباه صابر تردد أحد المقنّعين على دورة مياه المسجد عدة مرات في أوقات متقاربة، ومما عزز الشكوك والريبة في نفسه أن أحد أشبال المسجد جاءه يسرّ إليه أنه سمع ذلك المقنّع يكلم نفسه داخل مراحيض المسجد.!

سأله صابر، وكرر عليه السؤال:

- أواثق أنت مما تقول؟

- كل الثقة، فقد سمعته يكلم نفسه عندما دخلت «المراحيض»، وعندما خرج تفحصت كلّ المراحيض ولم أجد فيها أحدا.!

- اذاً اكتم الأمر، ولا تخبر أحداً به، وسأتحقق منه بطريقتي.

سأل صابر عن «المقنّع» فدلّ على اسمه، وأخذ يراقبه عن كثب، فوجده يظهر جرأة ونشاطا زائدين، ويحشر أنفه في كل أمر.

فقرر أن يأخذه بالحيلة ليكشف حقيقة أمره، ويوقعه، إذا كان خائناً، في شر عمله..

عمد إلى التقرّب منه، ومبادلته أطراف الحديث، وفي أول فرصة سنحت وانفرد به، أسر له بالقول:

- بعد ساعتين من الآن ستسمع خبراً يسرّك.!

- عن أي خبر تتحدث؟

- لا أستطيع أن أخبرك الآن فالأمر في غاية السريّة، كل ما أستطيع قوله أن جنود الاحتلال «سيأكلونها» وسيقعون في كمين محكم نصبناه لهم.

- لقد شوقتني، وأثرت فضولي، قل بالله عليك، ألا تثق بي وأنا أقف إلى جانبك في خط المواجهة حاملاً روحي على كفي؟

- سأخبرك.. لكن عدني أن لا تخبر أحداً حتى يتم الأمر.

- أعدك.

- أتعرف البيت المهجور «الخرابة» التي تبعد عشرات الأمتار عن مدخل المخيم؟

- نعم.. ما به؟

– بعد نحو ساعة من الآن سيتسلل إليه ثلاثة من مجاهدينا، ويكمنون في داخله لدورية عسكرية تمرّ قريباً منه، وسيمطرونها بوابل نيرانهم.

– إنها فكرة رائعة، ولا أظن أحداً من أفراد الدورية سينجو من هذا الكمين.

وما لبث أن استأذن صابر، وسلك طريقه نحو مراحيض المسجد.

هزّ صابر رأسه وقال:

– حقاً إن سوء الظن يكون في بعض الأحيان من حسن الفطنة.

ولم تمض نصف ساعة حتى دوى صوت انفجار كبير هزّ أرجاء المخيم.

سرّ صابر ورفاقه وراحوا يتعانقون وهم يكبرون:

– الله أكبر ولله الحمد..

في الصباح وجدت جثة ذلك «المقنّع» ملقاة مدخل المخيم.!

كان صابر قد أوعز إلى مجموعة من إخوانه أن تزرع «عبوة ناسفة» أمام تلك «الخرابة».. وعندما اتصل «العميل» بجنود الاحتلال ليخبرهم بالمعلومة التي حصل عليه من صابر، سارعوا إلى إرسال وحدة خاصة من جنود الاحتلال إلى «الخرابة» كي تسبق المجاهدين وتكمن لهم لتقتلهم أو تعتقلهم، وعندما اقترب جنود الاحتلال من المكان فجر المجاهدون العبوة بهم فتطايروا أشلاء في الفضاء..

ظن «أسياد» العميل أنه قد غرر بهم وانقلب عليهم فواعدوه واستدرجوه خارج المخيم، فلما جاءهم قتلوه والقوا بجثته على «مزبلة» مدخل المخيم!!

– ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله..

❖ ❖ ❖

عجّلت هذه الحادثة ببدء معركة المخيم عندما بدأ جنود الاحتلال هجومهم الواسع مع الفجر، وتصدى لهم المقاومون بكل بسالة وشجاعة رغم قلة عددهم وعتادهم، ودارت معارك طاحنة استمات فيها المقاومون في الدفاع عن مخيمهم، وأوقعوا خسائر باهظة في صفوف الأعداء، الذين غرّهم كثرة عددهم وعتادهم.

ولما شعروا بعجزهم وضعفهم أمام بسالة وصمود هؤلاء الفتية، راحوا كعادتهم في كلّ مرة يرتكبون المذابح والمجازر بحق النساء والشيوخ والأطفال، فبدأوا يقصفون المنازل ويهدمونها على رؤوس ساكنيها، مستخدمين الطائرات والجرافات المحصنة والدبابات، فسقط عشرات الشهداء ومئات الجرحى، وقرر المقاومون، بعد أن أوشكت ذخيرتهم على النفاد، أن يوقفوا القتال وينسحبوا من المخيم حقنا لدماء المواطنين الأبرياء التي أوغل المحتل في سفكها، بعد أن لقنوا العدو درسا لن ينسوه..

وتفرّق المقاومون، لجأ صابر ومجموعة من المجاهدين إلى الجبال، وتواروا في كهوفها، ومن هناك بدأوا يديرون معاركهم.

كانوا يختفون طوال النهار، ويتسللون ليلا تحت جنح الظلام، يغيرون على دوريات الاحتلال ثم يختفون كأنما تشقّ الأرض وتبتلعهم، حتى صار اسمهم بين الناس «أشباح الليل».

كانوا سبعة مجاهدين، اختاروا «صابر» أميرا عليهم، وقد حبا الله كلّ واحد منهم بخصلة ليست في غيره.

المجاهد «نصر» هو الأبرع في الرمي، وإصابة الهدف.

أما «حذيفة»، كان أشدهم ورعاً وتقوى، وحبا للشهادة في سبيل الله، لا

ينفك يذكرها حتى صاروا ينادونه بالشهيد.

«خالد» أعرفهم بمسالك الجبال والشعاب، والمداخل والمخارج، فكان دليلهم ومرشدهم.

«وسعد» أعلمهم بالعدو ولغته..

«وزيد» خبير السلاح والتصنيع وقد أسموه «المهندس»..

أما «أحمد» فكان الرئة التي تتنفس منها المجموعة، فقد كان يكتم انتماءه للثورة، ويظهر نفسه بين الناس مسالماً وديعاً، الأمر الذي مكّنه من التنقل بحرية، كان يزوّد الشباب بالمعونة والأخبار، وكل ما يحتاجونه، وقد أطلقوا عليه لقب «الهدهد».

لم تكن حياة الجبال سهلة ممتعة، كما يظن البعض، بل كانت قاسية صعبة، لا يطيقها إلا الرجال الشداد، فقد تطلبهم الأمر أن يتخلوا عن كل متع الحياة ورفاهية العصر، ويقاسوا الجوع والتعب، والقلق والأرق، ووهج الشمس، وبرد الشتاء، حتى أنه كانت تمر على أحدهم أيام طوال دون أن يستحم أو يبدل ثيابه.

آخر عود ثقاب

تلبدت السماء بغيوم سوداء، ثم فتحت أبوابها بماء منهمر، فهرع صابر ورفاقه يصعدون الجبل هربا من زخات البرد والمطر التي ما انفكت تنهمر بغزارة حتى سال منها الوادي.

لجأ الفتية إلى كهفهم في أعلى الجبل، بينما كادت الدماء تتجمد في عروقهم من شدة البرد، ولم يكن أمامهم إلا أن يشعلوا نارا يصطلون من لهيبها، ويجففون ثيابهم، فأحضروا كومة من الحطب الجاف كانوا ادخروها لمثل هذا اليوم، وأخرج أحدهم علبة الثقاب من جيبه ليشعل النار، فوجد الماء قد نفذ إليها وأصبحت عيدانها رطبة، ولم يجدوا طريقة لتجفيفها، فراحوا يجربونها عودا تلو الآخر، علّ أحد العيدان يكون جافاً، أو قليل الرطوبة فيشتعل، حتى لم يبق منها سوى عود واحد.

عندها استوقفهم «صابر» قائلاً:

- أتعلمون ماذا يعني عدم اشتعال هذا العود؟

وتابع:

- يعني أننا سنقضي ليلتنا بثيابنا المبللة وسط هذا البرد القارس، دون أن نتمكن حتى من صنع كأس من الشاي.

فردوا عليه قائلين :

- و ماذا عسانا نفعل؟

- ليس أمامنا إلا الدعاء، فهلموا بنا ندعو ربنا فإنه الأعلم بحالنا.

ثم رفع يديه نحو السماء، وتوجّه بالدعاء إلى الله سبحانه:

- اللهم إنا عبيدك، خرجنا من ديارنا وأهلينا، إيمانا بك وجهاداً في

سبيلك واتّباعاً لسنّة نبيك، لا نبتغي سوى مرضاتك، اللهم إنا في ذمتك فأعنا ولا تضيعنا، اللهم إنك ربّ كل شيء، وإليك كل شيء والقادر على كل شيء، نسألك بفضلك وكرمك، ورحمتك وقدرتك أن تمكننا من إشعال نارنا وتيسر علينا أمورنا.

وبعد أن فرغوا من دعائهم، اقترعوا بينهم من يشعل عود الثقاب فجاءت القرعة على «حذيفة» فسمى باسم الله، وأشعل العود فاشتعل، وأوقدوا نارهم وقضوا عليها حوائجهم.

تلا عليهم «صابر» بصوته الرخيم الندىّ، آيات مباركات من سورة الواقعة، حتى وصل إلى قوله تعالى:

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِؤُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ(٧٣) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ فرددوا جميعاً بصوت واحد خافت خاشع:

- سبحان ربي العظيم، سبحان ربي العظيم.

ثم قال صابر ممازحاً:

- أسمعتم بحكاية المغفل والنار؟

- هات قصّها علينا.

- زعموا أن مغفلاً كان يرى امرأته تضرم الحطب فتنفخ فيه حتى يشتعل، فاحتاج يوماً في بعض شأنه إلى نار، ولم تكن امرأته في الدار، فجاء بالحطب وأضرم فيه وجعل ينفخ، وكان الحطب رطباً فدخّن ولم يشعل النار، ففكر المغفل قليلاً ثم ذهب فلبس ثوب امرأته، وعاد إلى النار، وكان الحطب قد جفّ فلم يكد ينفخ حتى اشتعل وأضرم، فأيقن المغفل أن النار تخاف امرأته،

وأنها لا تتضرم إلا إذا رأت ثوبها![1]

فضحكوا جميعاً.. وقال صابر:

- ذكروني عندما يأتي «الهدهد» أن نطلب منه ليحضر لنا «ولاعة غاز» حتى لا يتكرر الموقف ذاته معنا..

١- نقلا عن وحي القلم للرافعي.

(١٥)

الطريق إلى الجنة

أشرقت الشمس بدفئها، وانبلج الصبح، فرحل الظلام ببرده، وحلّ مكانه النور بدفئه، وتلاشت الغيوم وصفت زرقة السماء، واستشعرت الطيور الدفء والنور، فنفضت أجنحتها وطارت فرحة تغرد وتزقزق، وتحلق في استعراض رائع لمهاراتها.

استفاق «ثوار الجبل» على صوتها، فخرجوا من كهفهم يستمتعون بأشعة الشمس وزقزقة العصافير، مستقبلين يوماً جديداً استهلوه بإرسال واردهم، الذي أدلى دلوه وجاءهم بالماء، فتوضأوا منه، وملأوا أوعيتهم.

وجلسوا يتناولون فطورهم، وكان كالعادة، «خبز وزيتون وزيت وزعتر»..

ثم انشغل كل واحد منهم في أمر..

حذيفة مع القرآن، وسعد مع المذياع، وزيد ينظف السلاح، وخالد يراقب بالمنظار، أما نصر فاستلقى تحت أشعة الشمس وبيده دفتر وقلم، اقترب منه صابر وسأله:

- ماذا تكتب؟

- أحاول كتابة رسالة إلى أمي ولا تسعفني الكلمات.

- أتود أن أساعدك؟

- وسأكون لك شاكراً

- إذاً اكتب: لك يا أم مني تحية وسلام، أزجيه مع رياح الصبا، ممزوج بالشوق والآه، شوق عاشق متيم بحبك البعد أثقل كاهله، والنوى أضناه.

لو تعلمين كم أحبك أماه، لقلتِ كان حسبي إذ لم ألد سواه، صابرة مصابرة، ثابتة مرابطة، فلله درك من ماجدة.

تيهي بين نساء الحيّ وافخري، من منكن أنجبت قريناً له؟ حاشاه!!

أرضعته لبن البطولة مهداً، فشبّ كالأسد الهصور، كل العوالم تخشاه.

إن الشجر إذا طاب، طاب ثمره، وإن خبث خبث جناه، والأم إذا حسن منبتها أنجبت شهماً، وإذا ساءت أنجبت مقيتاً تبيع هواه، كذا ينبت الفرع من أصله، وينضح كل إناء بما فيه.

قال نصر معجباً:

- لعمري إنك تقصد أمك لا أمي.

أطرق صابر قليلاً ثم قال:

- ألا ترى معي أن «الهدهد» تأخر بالعودة على غير عادته؟

- بلى، لم يسبق له أن فعل ذلك.

- أسأل الله أن يكون المانع خيراً.

فمكث غير بعيد، ثم أقبل فتهلل وجه صابر لما رآه وعانقه بقوة، وهو يقول معاتباً:

- ما الذي أبطأك عنا يا «أحمد»؟ لقد شغلت بالنا عليك.

- ما تأخرت عنكم إلا لأمر هام شغلني.

- وما هو هذا الأمر؟

- ألا تودون القيام بعملية نوعية تمرغون فيها أنوف جنود الاحتلال في التراب، وتغنمون أسلحة كثيرة وذخيرة؟

- بلى.. أليست هذه غايتنا ومرادنا؟

- مررت مصادفة بمعسكر لجنود الاحتلال يقع في أرض فلاة، فيه ثلاث خيام، محاط بأسلاك شائكة، يقيم فيه ليلاً قرابة ثمانية جنود، إذا تمكّنا من تحديد الخيمة التي ينام فيها الجنود، فسيكون من السهل علينا أن نتسلل إليهم ليلاً، ونجهز عليهم ونغنم أسلحتهم.

- ألا يوجد نقاط حراسة، أو مراقبة للمعسكر؟

- بل يوجد نقطة واحدة، وهي غير محصنة وغير مرتفعة عن الأرض، يكون فيها دائما جندي واحد فقط.

- نحتاج إلى معلومات أكثر دقّة حول المعسكر قبل أن نقرر مهاجمته.

قال زيد:

- اتركوا لي هذا الأمر، دلوني على المعسكر فقط، وزودوني بمنظار.

- إذاً تذهب مع «الهدهد» على أن تنجزا مهمتكما وتعودا قبل غروب شمس الغد.

- توكلنا على الله.

عاد زيد و «الهدهد» في الموعد المحدد، ووجدا إخوانهما ينتظرانهما على أحر من الجمر. بادر صابر بسؤالهما:

- كيف وجدتم موقع المعسكر؟

رد زيد:

– موقعه مناسب جداً، وقد تمكنت من رصده بدقّة، واستطعت تحديد كلّ صغيرة وكبيرة فيه.

– وكيف تمكنت من ذلك؟

– يحتاج الأمر إلى دقة الملاحظة والاستنتاج المنطقي، فعلى سبيل المثال، عرفت خيمة النوم، عندما شاهدت الجنود يدخلونها ليلا ولا يخرجون، إلا ما ندر لقضاء حاجة، وعندما خرجوا منها صباحاً كانوا يفركون عيونهم ويتثاءبون، ويرتبون هندامهم.

وعرفت خيمة السلاح عندما رأيت الجنود يدخلونها دون سلاح ويخرجون وهم يحملونه، أو يدخلون إليها بسلاح ويخرجون دونه. وعلى هذا النحو حددت كل أركان المعسكر ومحتوياته وسجلتها لكم.

– أحسنت يا زيد، هلموا بنا نرسم خطة الهجوم بناء على المعلومات التي معنا.

سنتسلل إلى المعسكر عبر الجهة الشمالية، كونها الجهة الوحيدة المغطاة بالأشجار، وعلينا أن نتحرك بخفة وبطء على شكل رأس حربة، وعندما نصل السلك الشائك سيقدم اثنان منا بفتح ثغرة فيه، بينما يحرسهما الباقون. وعندما نتجاوز السلك الشائك يتوجه أحدنا صوب الحارس ليتكفل بأمره، بينما تطبق البقية على خيمة الجنود.

قاطع «نصر» قائلاً:

– دعوا أمر الحارس لي.

ورد صابر:

– ومن غيرك لها يا نصر.!، أما أنت يا حذيفة فستبقى هنا في الجبل

تحرس متاعنا حتى نعود.

وجم «حذيفة» واغرورقت عيناه بالدموع، أمسك بيديّ صابر وراح يتوسل إليه ويرجوه أن يسمح له بالخروج معهم قائلا:

- بالله عليك يا صابر، لا تحرمني هذا الشرف، فما يدريك لعل الله يكرمني بالشهادة في هذه المعركة.

ولم يجد صابر أمام إصراره وإلحاحه إلا أن يلقي بقرعة بينه وبين خالد، فجاءت القرعة ثلاث مرات متتالية على خالد بالبقاء، فبقي على مضض، وخرج حذيفة بدلاً منه.

أما «الهدهد» فكانت مهمته أن ينتظر المجموعة بسيارة في مكان قريب حتى إذا فرغوا من مهمتهم استقلوها وانسحبوا مسرعين.

وقبل أن يخرجوا لتنفيذ المهمة، قام فيهم صابر خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى وسلم على رسوله» صلى الله عليه وسلم، ثم تلا قوله تعالى:

﴿ إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

ثم قال:

- إني لا أجد في هذا المقام كلمات أقولها لكم أبلغ وأفصح مما قاله هانئ ابن قبيصة في «ذي قار» التي انتصر فيها العرب على الفرس قبل الإسلام

فقد قال: يا معشر بكر هالك معذور خير من ناج فرور، إن الحذر لا ينجي من القدر، وإن الصبر من أسباب الظفر، المنية ولا الدنية، استقبال الموت خير من استدباره، الطعن في ثغر النحور أكرم منه في الأعجاز والظهور، يا آل بكر قاتلوا فما للمنايا من بد[1].

إذا كان هذا في جاهليته يقول ما قاله، فماذا يكون منا وقد أعزنا الله بالإسلام وشرفنا بالجهاد؟

رد حذيفة:

- والله لا يكون منا إلا ما يرضي الله ورسوله.

- هذا يومكم أيها الرجال، هذا يوم الوفاء لدم الشهداء، هذا يومكم لتنصروا الله ورسوله، هذا يومكم لتسؤوا وجوه أعدائكم، وتثأروا لكرامتكم وعرضكم وشرفكم، إن ملايين المسلمين والأحرار في مشارق الأرض ومغاربها ينتظرون فعلكم، ويدعون لكم، فلا تخيبوا رجاءهم.

فامضوا بنا باسم الله، في سبيل الله، على بركة الله، حانت ساعة الفصل.

تسلل المجاهدون بين الأشجار مستترين بها وبظلمة الليل، حتى وصلوا إلى الأسلاك الشائكة التي تحيط بالمعسكر، فاخرجوا «مقصات الحديد» وفتحوا فيها ثغرة، تسللوا عبرها، وتقدم نصر زاحفا نحو الحارس، وأطلق عليه النار وقتله، فيما كان بقية المجاهدين يقتحمون خيمة الجنود ويجهزون

١- أمالي القالي

عليهم.

سارع «حذيفة» إلى خيمة السلاح ليرى ما تخفيه من غنائم، لكن الله قدر خيراً من ذلك، الشهادة في سبيله، فقد أطلق عليه جندي كان يتواجد مصادفة في تلك الخيمة، النار وأصابه في صدره، وكان من خلفه «نصر» فرد بالنار على الجندي وقتله.

وحمل «المجاهدون» أخاهم «حذيفة» وما أمكنهم من سلاح وذخيرة وانسحبوا مسرعين نحو السيارة التي كان ينتظرهم فيها «الهدهد».

بذل صابر وإخوانه كل جهد مستطاع لإسعاف حذيفة، لكن جرحه كان غائرا، ولم يتمكنوا من وقف نزفه، ولفظ «حذيفة» أنفاسه الأخيرة بين يديّ إخوانه ورفاق دربه وهو يردد الشهادة، باسم الثغر، مطمئن النفس، تفوح منه رائحة المسك، وصعدت روحه الطاهرة إلى بارئها.

اختلطت على «المجاهدين» المشاعر بين الفرح والحزن، فلم يدروا أيفرحون بالنصر، أم يحزنون لفراق حبيبهم وأخيهم ورفيق دربهم حذيفة «الشهيد»؟

أيفرحون لأخيهم الذي نال الشهادة على هذا النحو المشرف الذي طالما تمناه وسعى له، أم يحزنون عليه وقد انتزع من بينهم وهو لا يزال شاباً يافعا، لم يفرح به أهله، ولم ير في هذه الدنيا يوماً يسرّه.!

دمعت عينا صابر، وتمتم بصوت حزين خاشع:

– لقد صدق الله، فصدقه الله، إني لأشهد أنه كان أزهدنا في الدنيا وأشجعنا وأتقانا، اللهم لا تفتنا بعده، ولا تحرمنا أجره، واغفر لنا وله، اللهم ميتة كميتته، اللهم ميتة كميتته.

وودعه إخوانه مقبلين رأسه وجبينه، ومعاهدينه على المضي في دربه حتى نيل إحدى الحسنيين.. النصر أو الشهادة.

قال «الهدهد»:

- لن ننساك يا «حذيفة» ما حيينا، سنذكرك عند كل صلاة، ومع كل تلاوة قرآن، سنذكرك عند كل فزعة وغارة، سنظل نذكر إقدامك وبطولتك وجسارتك.

احتار المجاهدون كيف سينقلون جثمانه إلى أهله؟ فهم مطلوبون لقوات الاحتلال، ونزولهم من الجبل يعرض أمنهم للخطر..

فقال خالد:

- أنا أكفيكم هذا الأمر، لنوصل جثته إلى أقرب مكان من بلدته، وسأتسلل إلى بيته وأخبر أباه، فأنا أعرفه جيداً، وهو سيرسل من يأتي بجثة ابنه..

طرق خالد باب المنزل، فخرج له والد «حذيفة» وما أن رآه أدرك أن أمراً ما حدث لحذيفة فبادر بالسؤال:

- استشهد «حذيفة»؟

- أجل.

- كيف كان ذاك؟

-استشهد في هجوم على معسكر لجنود الاحتلال بعد حسن بلاء وإثخان في الأعداء، وما هي إلا دقائق حتى يسمع العالم كله ببلائه وإخوانه، وقد قتل أحد مجاهدينا قاتله مباشرة بعد إصابته.

- نحمد الله على قدره، ولا نقول إلا ما يرضي الله «إنا لله وإنا إليه

راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وحسبنا الله ونعم الوكيل».

ثم تابع يسأل:

- هل ترك من وصية؟

- هي دائماً في جيبه، ولكن لو ترسل معي من يحمل جثمانه.

شيع «حذيفة» في مسيرة مهيبة خرجت فيها البلدة عن بكرة أبيها، واقسم من شارك فيها أن أسراباً من طيور بيض ظللت نعشه طوال الطريق من بيته حتى قبره، ولا تزال رائحة المسك تملأ السيارة التي قضى فيها، يجدها كل من يركبها.

❖ ❖ ❖

عاد صابر ورفاقه إلى عرينهم، وواصلوا مسيرة جهادهم.

مرت بهم الأيام، وتقلبت عليهم الأحداث، وبقي «الهدهد» يغدو إليهم ويروح..

وجاءهم «يوماً» في صرة مبشراً:

- فازت حماس، اقترب النصر، هلّت البشائر.

ثم ما لبث أن عاد قاطب الجبين، أطرق هنيهة، ثم تنهد وهز رأسه وقال:

- أتظن «الغربيين والأعراب» يتركون هذا الركب سائراً؟.

- لا يا أخي، ستجد قبل ابن سلول ألف أبي لهب يضعون الشوك، ويقطعون الأواصر.

إنه حقاً لنصر، لكن وحتى يكتمل، يجب أن يتبعه ألف نصر، وألف

حقيقة، وألف فداء.

عندها فقط تهلّ البشائر بأنوارها، وزينتها وبهائها.

وعند ذلك، تعود القدس إلينا طاهرة مطهّرة، تعود فلسطين، كلّ فلسطين إلينا. وعند ذلك ندحر الطامعين، أعداء اللّه والإنسان..